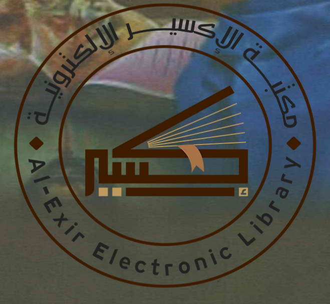
ALAA MASHTHOB

مدن الهلاك والشاهدان

علاء مشذوب






مكتبة الإكسير الإلكترونية
Al-Exir Electronic Library

مدن الهلاك و الشاهدان

روايتان

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : ٣٥٥٢ / ١٠ /٢٠١٣

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٣) لسنة ٢٠١٣ الطبعة

العربية ٢٠١٤

اللوحة من إبداع الفنان العراقي بشير مهدي



عمـان-ش الملك حسين - وسط البلد اول طلعة
جبل الحسين بجانب سرفيس جبل الحسين خط 9
ص.ب 925636 العبدلي 11190 الاردن
هاتف: 00962 6 4633362 للفاكس: 00962 6 4633352
جوال: 00962 795 707630 - 00962 797 509925
E-mail:salah_tallawi@yahoo.com

مدن الهلاك والشاهدان

روايتان

علاء مشذوب

الإهداء

الى

أخي ستار لن أغادرك حتى لو مضت السنين بي أنيابها

أبو نؤاس (محمد علي الخفاجي) جرحا آخر في وجداني

محمد الكتبي الذي أصرَّ على احتضاني

صلاح التلاوي لما أبداه من محبة وكبير احترام

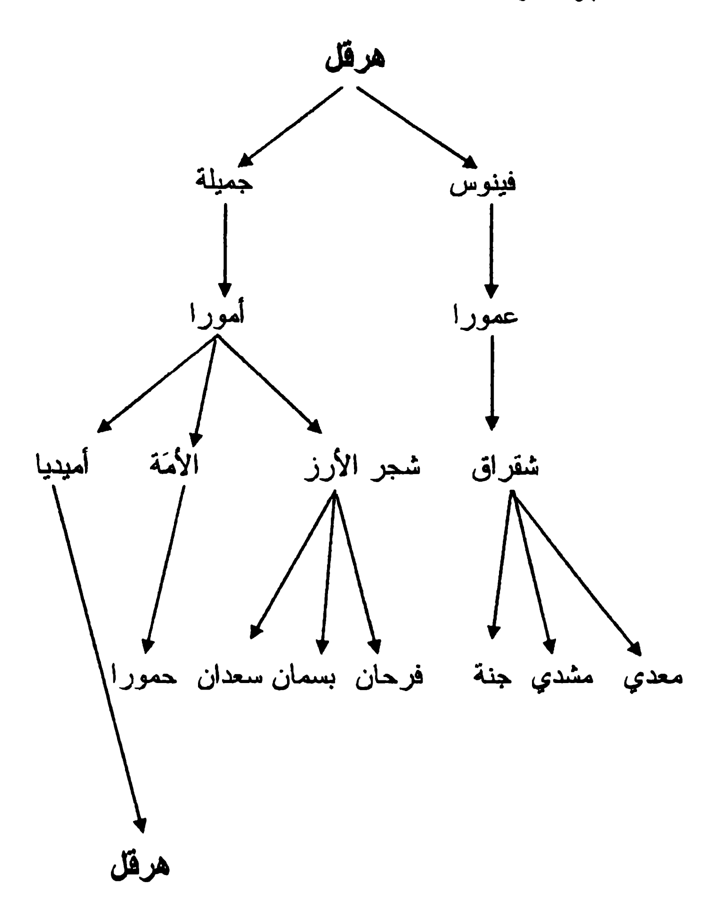
كل المدن العراقية التي اندثرت وانبثقت على غبارها

مدن جديدة

أبطالي الحقيقيين في أرض الواقع أدين لهم بالامتنان

علاء مشذوب

مخطط الجزء الأول



مدن الهلاك

-١-

في معبدٍ كبير يتوسط المكان، حيث النقوش تملأ الجدران، هنا جفنة من طين منقوشة على هذا الجدار، وهناك رسمت شجرة تفاح، على جدار آخر رسمت أفعى، على واجهة المعبد رسمت مجموعة من النساء وهن فارعات الطول مسدلات الشعر، يومئن بأعينهن للزائر بالقبول والإيجاب، كما كانت شعلات النار متناثرة هنا وهناك تضيء المعبد من الداخل، التماثيل تملأ المكان، على اليمين كان تمثال اله الإنجاب الذي تقصده كل النساء وهن يتضرعن له وينذرن النذور من أجل الحصول على الذرية، وعلى اليسار كان اله الخير الذي يقصده الرجال والنساء مجتمعين، كان يجلس ممثلى ألآله وهم كل من الكاهن وزوجته، اللذان يمثلان الناطق بإسم الآلهة حينما يعم الخير المكان أو الشر والأمراض.

ولد هرقل لعائلة غنية لم تكن تستقر حتى يدب الخلاف داخل أسرته حول ملكية السيطرة بين الأبوين على العائلة ومواردها، نشأ هرقل وسط هذا الجو المشحون بالتوتر وغياب السيطرة والتنقل بين البراري يصارع قطاعِ الطرق وبعض الحيوانات البرية، وصادف أن دخل في معركة شرسة مع حيوان نصفه طائر ونصفه أرضي، وبعد عدة جولات أنتصر عليه، وتبين بعد ذلك أن هذا الحيوان يعود إلى فتاة أبواها أصحاب المعبد، فعقد مجلس المعبد جلسته بحضور أبوي هرقل من أجل إنزال العقاب

الواجب بابنهما جراء العمل الذي أقترفه، فصدر قرار بنفيه إلى أرض بابل وتغريم أهله نصف أموالهم وأرضهم ومصادرة قطعان الماشية كلها.

عندما علم هرقل بذلك القرار لم يستطع رفضه وإلا ستحل لعنة الكهنة والمعبد على عائلته كلها، ولكنه ظل ثلاث ليالٍ يجول في البراري المحيطة بالمكان الذي يعيش فيه يودّع أشياءه وضفاف الأنهار التي كان يجلس عليها وهو يصطاد السمك وداخل بيوت القصب التي كان ينام فيها ليلاً بعض الأحيان، وصل إلى واحة الماء الذهبية التي كانت تمنحه القوة التي يصارع فيها حيوانات البراري وكل الأقوياء من المناطق الأخرى .

في صباح اليوم الرابع وبعد أن ودّع أهله وأصدقاءه والحيوانات التي كان قد دجنها داخل بيتهم، شد الرحال باتجاه الغرب إلى حيث أرض بابل، وبعد ان مشى أكثر من ثلاث ليالٍ، وصل أطراف المدينة، نظر إليها من بعيد، أنها تختلف كل الاختلاف عن مدينته، حيث المباني المرتفعة عن الأرض بأكثر من طابق، كلما تقدم باتجاهها أكثر وجد الاختلاف الكبير وبدأ يعقد مقارنات بينها وبين مدينته، وجد الطرق معبدة، والأسواق مزدهرة بالبضائع التي يصنعها الإنسان، بعد أن كان يعتمد في أكله على السمك المدخن والمجفف، رأى المعابد مختلفة في بنائها وآلهتها، وكذلك الناس في ملبسهم، فقد وجد أن الكتابة على جدران تلك المعابد تختلف عما هو موجود من رسوم توشح معابد منطقته ....

بدأ أصحاب المحال بوضع قطع كبيرة من الجلد أو القماش على بضائعهم، بينما الآخرون ينقلون بضاعتهم إلى داخل محلاتهم ومن ثم إنزال قطعة من الخشب مربع الشكل على واجهة المحل إيذاناً منهم بانتهاء اليوم، لم يكن يعرف أين يذهب فعاد من جديد إلى أطراف المدينة، وجلس عند مصب الماء المؤدي إلى أرض زراعية . بعد قليل جاء رجل كبير السن يريد إزاحة حاجز الماء ليتدفق على أرضه فهذا اليوم تكون حصة أرضه من الماء . رجع إلى الوراء عندما رأى ذلك الشبح الكبير وهو مستلق على الأرض بعد أن أخذ منه التعب مأخذه، رفع الآلة الحادة التي كان يحملها بيده تأهباً لأي طارئ من الحيوانات السائبة أو بعض اللصوص، إلا أن هرقل كان شبه واعٍ لوقع أقدام رجل يسير وهي تدنو باتجاهه وبعض ظلال النار التي أضفت الضوء على المكان، أراد أن يقترب أكثر ليوضح مشكلته وبأنه غريب عن هذه الديار ولا يوجد عنده مأوى، فبادره بالقول :

- أنتظر يا أخي ولا تتسرع .

وقف الرجل في مكانه متسمرا متسائلا في داخله، من أين أتى هذا الصوت ؟

- أنا إنسان مثلك ولست لصاً أو حيواناً مفترساً أو من أنصاف الآلهة .

- من تكون .. قل ؟ عرّف بنفسك بسرعة وإلا قتلتك ؟

- أنا غريب جئتكم من المنطقة الشرقية منفياً، وأروم العيش في هذه المنطقة، ولا أعرف أين أذهب بعد أن جنّ الليل، وأغلق الناس محلاتهم وبيوتهم .

- وما هو أسمك ومن هي عائلتك ؟

- أنا هرقل انتمي لعائلة الشمس وأمي أسمها باطن الخير .

- ولماذا تذكر أسم أمك ؟

- وهل هذا لا يجوز عندكم ؟

- لا ... ومع ذلك فأني لم أسمع بهذه العائلة من قبل ؟

في هذه الأثناء أقترب الرجل المسن من هرقل بعد أن نهض الأخير من جلسته وأستوى واقفاً على الأرض، نظر إليه الرجل مستعيناً بضياء القمر وشعلة النار التي كان يحملها في يده اليسرى ... أواه أنت بالفعل إنسان مثلنا وغريب عن هذه المنطقة، قرّب شعلة النار من وجهه أكثر، رأى بعض الأثر على وجهه، مثلما رأى عضلاته المفتولة، كان يمتلك جسداً ضخما ليس مثل الآخرين .

اصطحب الرجل المسن هرقل إلى بيته، بعد أن ساعده في فتح حاجز الماء ليتدفق نحو الأرض كلها، أدخله الغرفة الخارجية من الدار، جاءه ببعض الأغطية ليتخلص من لذع موجات البرد التي بدأت تطل على المدينة .

واصل هرقل النظر إلى السقف من خلال النور المتبقي من شعلة النار المتهالكة، كان السقف خليطاً من الطين وتبن الشعير وجذوع الشجر، وبين بناء السقف والأغطية التي على جسده وبقايا تعلقه بمنطقته بعد أن أهلكه التعب استغرق في ملكوت النوم حيث لا يدري، بعد ان ناجى نفسه : **كان يا ما كان في قديم الزمان /في أقصى الجنوب الحزين / نبتَ الإنسان / ومثله القرطاس /فدبتْ الحياة** .. في صباح اليوم التالي، وتحت وطأة أصوات مختلفة النغمات من الطيور وأصوات الأجراس، وتزاحم العمال والمعامل، استفاق متثاقلاً من فراشه، ينظر ويتفحص متسائلاً أين هو؟ في وقت قصير دخل الرجل المسن، ليجالسه ويتعرف عليه أكثر. في هذه الأثناء دخلت أحدى بناته تحمل بيدها (طابك)* فيه حبات من التمر وبعض أرغفة الخبز، وبعض البيض، ودخلت خلفها أختها الثانية وهي تحمل إناء كبير من الحليب، لتقدمه إلى الضيف .

---

* - (الطابك): مائدة منسوجة من خوص سعف النخيل، والمعمول بشكل دائري لحمل الأشياء التي توضع عليه.

فينوس هي البنت البكر للرجل المسن، كانت باسقة الطول، ممشوقة القوام ، ذات شعر أصفر، ناهدة الصدر، ضامرة الخصر كما لو كانت غزالاً برياً، فمها ملموم الشفتين، عندما تضحك تعتمر في خديها غمازتان، في أسفل الحنك غمازةٌ ثالث، أما أصابعها ورغم أنها تساعد أباها في بعض الأحيان في عمله إلا أنها كانت ممتشقة الطول كأنها أصابع النخيل في تناسقها .

جميلة هي الأخت الصغرى، ولم تكن أقل جمالاً من أختها الكبرى، سوى أنها أقصر منها قليلاً وتمتلك شعراً أسود كظلمة الليل، وبينهما كان الأخ الوسط الذي ترك العائلة ليعمل في بلاط الملك المحارب على مدار السنة، والذي كان يطمح أن يكون محارباً كبيراً، ومن ثم يتقرب إلى الملك ليكون أحد قادته ومن ثم يتزوج أبنته، ليصبح بعدها أميراً على البلاد ومن ثم هو الملك عليها ... وصل الأخ الوسط مراحل متقدمة في الجيش، حتى تسنـِّم منصب قائد جيوش إمبراطورية الملك، وقام بغزوات كثيرة وكبيرة كان آخرها نحو الغرب حتى وصل إلى ضفاف البحر المتوسط، ليفتح بلداناً كثيرة، ويعود بأسرى كثر، استخدموا فيما بعد في السخرة، وفي أحد الحروب التي خاضتها الإمبراطورية للدفاع عن حدودها من جهة الشرق، قتل هناك وجيء بجثمانه محمولاً على عربة ملكية، ودقت له الطبول، ووورى جثمانه الثرى .

لم يكن هرقل ليعرف أي نوع من الأعمال فهو سائح في ملكوت البراري سابقاً، لكنه اليوم غريب ولا يعرف أي أحد من أفراد المدينة، ما السبيل إلى العيش بعد أن قضى سبعة أيام عند

الرجل المسن، يخرج صباحا ليسيح في داخلها ينظر الحياة المدنية التي لم يعهدها سابقاً، ينظر إلى الأطفال وملابسهم مثلما رأى بعض الأبنية البسيطة التي تمثل أماكن تعليم الصغار، ورأى مختلف الأشكال من البشر بين الأبيض والأسود، مثلما سمع عدة لغات، لم يستطع فهم أغلبها، ثم عاد إلى بيت الرجل المسن بعد أن بدأت الشمس بالغياب، ليسدل الليل ستاره الأسود على الكون الفسيح.

لم يستطع أن يطرح مشروع الزواج على الرجل المسن، لأنه يعرف أن الزواج في قريته السابقة تعني أن نصف التكاليف على الرجل ونصفها الآخر على المرأة، وأن على الرجل أن يسكن عند الزوجة التي يختارها، أما الأطفال فيسجلون باسم الأم، والأهم من كل ذلك هو هل سيوافق الرجل المسن على زواجي من أبنته (فينوس) وهل ستوافق الأخيرة على ذلك، ترك أمر الزواج يتزاحم داخل نفسه دون أن يبوح به .

شعر الرجل المسن بحيرة ضيفه (هرقل) وهو العاطل عن العمل ولا يعرف ما يمكن أن يقدم لنفسه وأين يسكن وكيف يعيش؟ عندما جنّ الليل وجيء بالعشاء، بدأ الرجل المسن بالحديث:

- لابد أن تعمل وأن تؤسس بيتاً مستقلاً لكونك غريباً هنا ولا يمكنك الرجوع إلى قريتك بعد أن طردت منها ما تبقى من عمرك .

- أتمنى ذلك ... ولكني لا أعرف أي نوع من الأعمال ؟

- لماذا لا تعمل عندي في زراعة الأرض .

- أتمنى ذلك ولكني لا أعرف من الزراعة شيئا .

- هذه ليست بالمشكلة الكبيرة فالبنات سوف يعلمنك ذلك .

- شكرا لمساعدتك .

في صباح اليوم التالي نهض هرقل مبكرا مع الفتيات، من أجل معرفة أسرار هذا العمل الذي يعتمد على الجهد العضلي أكثر من الجهد العقلي، تبعهم بعد ذلك الرجل المسن ليشرف على العمل كله، ويوجه الجميع، انخرط هرقل في العمل الزراعي، بادئاً بمعرفة بعض الأشياء البسيطة عن الزراعة، كرفع حاجز الماء، ورفع الدغل الذي ينبت بالقرب من الأشجار المثمرة، وقطف الثمار، وكذلك طرد الحيوانات البرية التي تقتل الدجاج والطيور الداجنة الأخرى ؟

بدأ موسم الحصاد فأخذ هرقل منجلاً كبيرا ً أسوةً بالباقين ليحصد السنابل التي أطرقت برأسها بعد أن ثقل حملها على عيدانها، بينما هم منكبون على الحصاد، تصاعد صوت عال من فينوس ينذر بحدوث شيء خطير، ركض هرقل اتجاهها، وإذا بأفعى كبيرة تجثم على بيضها رافعةً رأسها إلى الأعلى ومخرجةً فحيحاً ينذر القادم بالهلاك، تقدم نحوها هرقل محاولاً مسكها بيده لكنها كانت أشرس من أن يمسكها أحداً وبعد عدة محاولات لم يستطع هرقل إلا ضربها بمنجله ليحيلها إلى جزئين .

في أحد الجلسات المسائية وبعد أن حط موسم الحصاد رحاله وأصبحت الأرض مكشوفة مثل البراري القديمة التي تركها خلفه هرقل ... سأل الرجل المسن عن البناية الكبيرة التي تتوسط المدينة المكتظة بأشجار رائعة المنظر تبهر العقل، فما كان من الرجل المسن إلا أن ضحك حتى بان نابه الوحيد الباقي في فمه كأنه آخر الجنود في معركة خاسرة .. ليس هذا بعجيب، وبدأ يشرح له بأنهم الشعب الوحيد الذي أكتشف صاعد الماء، والذي ينقل الماء من الأسفل إلى الأعلى عن طريق مجموعة من الأواني المربوطة بشكل متوالٍ الواحدة خلف الأخرى وكلها مربوطة في دائرة خشبية تتحرك باستمرار من الأسفل إلى الأعلى لتنقل الماء على ارتفاع أكثر من خمسة أمتار لنهر اصطناعي يأخذ الماء إلى صاعد الماء الجديد، والذي بدوره يأخذ الماء من جديد نحو الطابق الثالث من الأرض المزروعة بالأشجار والخضرة وهكذا دواليك حتى يصل الطابق العاشر ليعود الماء الفائض من جديد لحوض النهر بقرب صاعد الماء الذي ينقل الماء .

هكذا بدأ هرقل يكتشف الأماكن والأشياء وأصبح أكثر مرونة ومتأهباً لتقبل الحياة كما هي، وبدأ يفكر بشكل جاد بالزواج بأبنة من من بنات الرجل المسن، ولكن متطلبات الزواج لا يستطيع توفيرها، فما كان من الرجل بعد أن أدرك ذلك الشعور عند هرقل من أن يفاتحه بالموضوع، ويطلب منه التقدم للزواج لكن هرقل عقّب بالقول :

- ولكن كيف لي أن أوفر تكاليف الزواج ؟

- لا تحمل هم ذلك فأنا أمتلك أرضاً كبيرة وأحتاج إلى أبن يساعدني على هذه الأرض ويحميها... ولكن قبل ذلك هل أنت أعزب أم متزوج ؟

- لا أنا عازب ولم أتزوج سابقا، ولكن هل (فينوس) موافقة على الزواج ؟

- لابد أن أسألها ذلك ؟

- طيب لماذا لا تسمح لي بالزواج من كلتيهما في آن واحد ؟

- سأسأل (جميلة) أيضاً ... إذا وافقتا على الزواج فسأبني لكم دارين بالقرب من داري.

بدأت مراسيم الزواج بعد أن أتم الرجل المسن بناء الدارين، وبعد ان أعلنت في المنطقة مراسيم الفرح، دعا الرجل المسن أغلب وجهاء المدينة وقادتها من الجيش، فنحرت الأغنام ونصبت الموائد العامرة، وكذلك الأسماك، ورافق ذلك عودة جيوش الإمبراطورية إلى المدينة وكان لابد لها أن تمر في شارع كبير وعريض عدَّ خصيصاً لهذا الغرض .

حل موسم الربيع وبدأت الأشجار تفتح أزهارها، وترسل أريجها على الأرض الفسيحة، وبدأت بعض الأقوام بإنهاء شهر صيامها بعد أن طلع الهلال، كما بدأ بعض الأقوام الأخرى بالتوجه نحو الغرب من أجل الحج فالمكان الذي كان يقصدوه لا يبعد أكثر من ستين فرسخاً عن مدينتهم، ويدعى (قربان الله) فشدوا الرحال إلى هناك بعد أن أخذوا بعض الماشية والمؤن، طلباً للذرية الصالحة، لم يكن الطريق محفوفاً بالمخاطر أو الصعوبات من العطش أو الجوع مثلما كان يخلو من قطاع الطرق واللصوص، والأهم من كل ذلك كانت هناك جموع غفيرة متجه إلى المعبد الذي يقع في مدينة (قربان الله) .

فتح هرقل متاعه وأخرج بعض الأوتاد ونصب خيمتين لزوجيه، بالقرب من المعبد الكبير، بعد أن وجد قبله الكثير من أصحاب المطالب والنذور وهم يتوافدون متواترين إلى المكان من قبله ومن بعده، في الصباح ذهبوا أجمعهم إلى المعبد بعد أن نحروا

الماشية في المكان المخصص لها، مثلما أهدوا بعض القطع النقدية من النحاس والذهب لسدنة المعبد من الكهنة والخدم، وبدأ كلّ منهم يتضرع إلى الرب الذي يعبده من خلال هذا المعبد، فهو المكان المقدس والطريق إلى كل الأرباب، ويطلب كلّ منهم ما بنفسه ويتمناه، فقد ناجت فينوس نفسها :

- أطلب منك أيها الرب العظيم أن تمنحنا السلام والأمان وأن تكفينا شر الحروب واللصوص والأمراض، وأن ترزقنا الذرية الصالحة، وأن تحفظ أختي وزوجي من المحذور والمخبوء ... من الجن والسحر، ومن كل أرباب الشر .

أما جميلة فقد أسرّت لنفسها وهي على باب المنحر الكبير للرب:

- أطلب منك يا الهي أن تمنحني القوة والسيطرة حتى أحيط بكل الأرض التي حولنا وان ترزقني بأولاد يحبون المال والأرض وأن يكونوا شجعان مثل أخي، وأن تجعلني دائماً جميلة ومحافظة على نضارتي لأكون الأولى وسيدة البيت دائماً ؟

هرقل لم يكن معتاد على هذه الأمكنة ولم يعتد التضرع إلى أي رب، رغم ذلك وقف معهن وجمع يديه إلى صدره وأغمض عينيه ولم يتمن أي شيء حتى العودة إلى دياره، ولكن الجو العبادي المصحوب ببعض الأبواق وأصوات الناي والدفوف أضفت جواً من الخوف والرهبة على كل الداخلين في المعبد، وبدأ

يشعر بالخنوع والخشوع إلى شيء لم يعرفه بعد، ولكنه يشعر به من خلال الآخرين.

أنقضت الأيام الثلاثة لموسم الحج وهم في كل يوم يذهبون إلى هذا المعبد ويقفون نفس الموقف ويطلبون ويتمنون أمنيات عسى ان تتحقق، ثم شدوا الرحال عائدين إلى مدينتهم، وعندما وصلوا الأرض الزراعية حيث بيوتهم وجدوا أنها قد خربت تماماً والأشجار قد دمرت كذلك، والماشية قد سرقت ولم يبق أي شيء عندهم، سوى ما تم خزنه من الحبوب للموسم القادم .

استطاع هرقل وبمساعدة زوجيه من أن يزرع الأرض مرة ثانية وأن يعيد الحياة إليها، وبدأت من جديد دورة الحياة، وفي هذه الأثناء حملت زوجتاه ولم يعد في الإمكان أن يساعدنه في الزرع والحصاد فاستعان ببعض الفلاحين بأجر، حتى إذا ما بدأ الموسم الأول خرجت الطبيعية عن زمام السيطرة والمتمثل بغضب إله الماء ليصعد أكثر من ثلاثة أمتار ويغطي كل الأراضي الزراعية وغير الزراعية، ويقتل الجزء الكبير من الماشية ويهدم الكثير من البيوت الطينية وبعض من بيوت المدينة .

أجّرَ هرقل جزءاً من أرضه إلى بعض الفلاحين لأنه لم يعد بعد اليوم له القدرة على زراعتها ومراعاتها، كذلك أنجبت زوجاه له طفلين كان الأول ابن فينوس أسمه عمورا، أما أبن جميلة فكان أسمه أمورا، لم تكد الأرض تسترد عافيتها، وتبدأ براعم الأشجار بالتفتح والبذور تشق الأرض، حتى أصابهم وباء من الحشرات فأكل الأخضر واليابس، وعمت المجاعة وبدت الماشية هزيلة لا تستطيع إطعام نفسها، أما التجار فقد ضاعفوا الأسعار، إلى الحد الذي لا يستطع فيه الفقراء من شراء حفنة حنطة .

هكذا بدأت النوائب بالتناوب على المدينة، فقد عم الفقر والجهل والأمراض، مثلما عم السلب والنهب والقتل في عموم المدينة، لم يكن أحداً يستطيع الاقتراب من الرجل المسن وعائلته

ومعهم هرقل، فقد عرف الأخير بشجاعته وحرصه على أن يكون جزءاً من أهالي المدينة المسالم بعد عدة سنين من البيع والشراء لمحاصيله الزراعية لتجار مختلفين، ولكنه لم يستطع منع الأمراض من الاقتراب من زوجيه، وصادف أن عم مرض يصيب النساء بالعقم، فلم تعد نساء المدينة بعد شيوع ذلك الوباء من الإنجاب .

أيقن الرجل المسن أن هرقل مصاب بلعنة الآلهة، فكان لزاماً عليه، أن يخلصه من تلك اللعنة، فذهب به إلى المعابد المتناثرة داخل المدينة، ثم خصه بمعبد كبير يسمى مجمع الآلهة، نزل به إلى أسفل الأرض، حيث قضاة العالم السفلي، ليرى رأيهم فيما حل به وأرضه وبناته، فأشاروا عليه، بأن هذا الشخص مصاب بلعنة المعبد، ولزاماً عليه، أن يغتسل بالمياه الجوفية، ومن ثم يخرج من المدينة لفترة قليلة، حتى يبرأ من تلك اللعنة التي تلاحقه، فذهبا إلى معبد الإله (أيا) وغسل هرقل سبع مرات بالمياه الجوفية حتى برئ من جزء منها، ثم فكر كيف له من أن يرحل عن المدينة، بعد أن أستقر ومال إلى الدعة وقد تزوج وأكل الخبز، رغم أنه لم يفقد كامل طاقته بعد، وسمعا في المدينة أن الإمبراطور يعد جيشاً جراراً ليغزو به المدن الشمالية، فما كان منه إلا أن شارك به بعد أن أنيطت له قيادة أحد الجيوش المتجهة إلى هناك .

تحرك الجيش بعد أن تجند أغلب من كان في المدينة وعموم الإمبراطورية، بدأ بالزحف الكبير إلى الجهة الشمالية،

وبالرغم من كونها ذات تضاريس مختلفة عن الأراضي المنبسطة التي كانوا يعيشون عليها، إلا أنهم استطاعوا أن يتغلبوا عليهم وأن يسحقوا الجيوش المعادية ويضموها إلى الإمبراطورية وعادوا إلى مدينتهم، مزهوين بالنصر، محملين بالغنائم، من المحاصيل الزراعية و الماشية والنقود وكذلك بعض العبيد من الرجال والنساء من الذين قاوموا جيوش الإمبراطورية .

استقبلوا استقبال الأبطال، وعم المدينة الفرح وأستعادت الحياة نشاطها من جديد، وبدأت الأرض تستعيد عافيتها وزرعها، وكذلك أقترح بعض العبيد من الذين أتوا بهم أسرى من ساحل البحر الأبيض المتوسط، بأن يبنوا سدود على النهر الذي يغذي المدينة، من أجل منع غضبه في أن يدمر الأراضي من جديد .

هكذا استتبت الحياة، وبدأت دورتها من جديد، فلم يمر فصل إلا والمدينة تزداد نفوساً أما من الوافدين الجدد، أو من الأسرى وسرعان ما تزداد المدينة لغة وديناً جديداً ، لتنتج معابد ودور سكن جديدة، ومات ملك الإمبراطورية، ليخلفه ملك جديد حتى جاء اليوم الذي أحدث فيه أحد قادة الجيش انقلاباً على العائلة المالكة، فأسرهم مع كثير من القواد الموالين لهم وكذلك بعض رهبان المعابد وسدنته، وأعدمهم جميعاً في الساحات العامة وسن مجموعة من القوانين الجديدة، والتي حرم بموجبها زواج الأخوة، والسرقة وغيرها من القوانين التي (أذهبت بعض النقم) التي كانت تحل بالبلاد نتيجة القوانين القديمة .

كبر هرقل ومثله كبرت زوجتاه، وكذلك أصبح **عمورا وأمورا** شابين يافعين، ولم يرغبا الاشتغال في الزراعة، خاصة بعد الخسائر التي سمعوا بها، فضلوا الاشتغال بالتجارة، وبعد أن فاتح كلٌ منهما أمه في بيع جزء من الأرض، من أجل الحصول على بعض المال للعمل في التجارة، وافقت أمهما على مضض، ولم يبق من تلك الأرض الشاسعة إلا جزء بسيط يطل على النهر، وهو بالكاد يكفي البيوت المنشأة عليها وبعض الحيوانات الداجنة وجزء بسيط لزراعة الخضروات الموسمية .

اشترك الأخوان في شراء متجر كبير وسط المدينة، واتفقا على شراء الحبوب من الفلاحين والمزارعين وخزنها ومن ثم

بيعها في وقت آخر عندما يزداد سعرها، بدأت الأمور تجري مثل ما خططا لها، وأصبحت تجارتهم رائجة، أراد أمورا الزواج ففاتح أمه في ذلك، فرحت كثيراً بذلك، ثم سألته :

- هل هناك فتاة معينة في بالك ؟

- نعم .

- ومن هي ؟

- أنها بنت أحد التجار من الذين نتعامل معهم في البيع والشراء .

- وهل رأيتها ؟

- نعم في أحد المرات، عندما أتت إلى متجر والدها مع أمها .

- دلني على بيتهم، وسأزوجك إياها .

- أنحنى أمامها ومن ثم قبل قدمها، رجع إلى متجره متبختراً .

لم يكن أحد ليغفل من هو أمورا أبن جميلة، فهو ابن عائلة مشهورة في المدينة وعريقة في نسبها، وكذلك أختها فينوس، لكن المشكلة التي لم تتبلور بعد في أيٍ منهما يتقدم إلى الآخر، هل الرجل يتقدم إلى المرأة أو العكس ؟ فكل قوم من الأقوام التي سكنت المدينة كانت لها عادات وتقاليد تختلف عن الأخرى .

ذهبت الأم في اليوم التالي إلى دارهم لتتعرف على الفتاة وأهلها، ولتعرف تقاليدهم في مراسيم الزواج كذلك. كانت محل ترحاب من قبل أم الفتاة، وبعد الجلوس في باحة البيت، فتحت جميلة الموضوع معها في أن أبنها يود إقامة عائلة ولم يجد أشرف منكم في ذلك، ولكنها تريد أن ترى الفتاة أولاً مثلما تريد أن تعرف مراسيم الزواج التي فطرت عليها، في هذه الأثناء جاءت الفتاة وهي تحمل بعض الفاكهة لتقدمها، قالت الأم :

- أقدم لك ابنتي شجرة الأرز .

قالت جميلة :

- أهلاً وسهلاً بأحلى الأسماء وأجمل البنات .

لم يكن للفتاة من أن تشيح بوجهها عن هذا الكلام بل جلست معهن وبادلتهن أطراف الحديث، ثم قالت الأم بالنسبة لتقاليدنا فهي لا تختلف عن تقاليد الكثير من الأقوام في أن الذرية تسجل باسم الأم وكذلك الأملاك، سواء الآتية من طرف الفتاة أم الفتى، أما موضوع القبول والرفض فهذا يعود لابنتي (شجر الأرز) .

قالت شجرة الأرز :

- لابد لي من أن أرى الفتى أولاً وأجلس معه وأتحدث ومن ثم أقرر فيما إذا ينفع الزواج منه أم لا ؟

قالت الأم :

– وأنا معك في كل ما تطلبينه، وفي المرة القادمة سآتي به إليكم ، ليتم ما تم الاتفاق عليه بيننا .

في هذه الأثناء جاءت أختها الصغرى (شقراق) لتنضم إلى الجلسة، ولما رأتها الأم أعجبت بها كثيراً ودار في بالها أنها قد تكون مناسبة لأبن أختها عمورا، ولكنها لم تفاتحها بالموضوع لحين طلب موافقة أمه (فينوس) سعدت جميلة كثيراً بشجرة الأرز وأختها، فقد وجدتهما، فتاتين تصلحان لأن تكونا أميّن لعائلتين نجيبتين، ويمكن لهن أن تحكما الشابين، بحيث لا يذهب بهما الشطط بعيداً، وكذلك وجدت أمهما غنية بالأطيان التي ورثتها من أهلها وأهل زوجها، والأهم من كل ذلك هو أنها عندما ودعتهما وخاصة الفتاتين نزلت بيدها إلى ورك كل منهما لتتفحصه، مثلما ذهبت برأسها إلى حيث شعر وجسد كل منهما لتشمه .

أعلنت العائلتان مراسيم الزفاف وزف أمورا إلى دار شجر الأرز، بعد أن أضيئت الأنوار وطريق المعبد بين الدارين، وقرعت الطبول ونحرت الخراف، وتم مباركتهم في أحد المعابد القريبة، ظل أمورا ثلاث ليالٍ في الدار لا يخرج إلى متجره، وفي صباح اليوم الرابع خرج إلى عمله، كان التعب بادياً على يسره والصفرة طاغية على وجهه، حتى إذا ما وصل إلى متجره استلقى على دكه كانت قريبة منه، فلما رآه أخوه عمورا بهذا الشكل أخذ الضحك منه مأخذاً حتى استلقى جانباً دون ان يستطيع السيطرة على نفسه من الموقف الذي رأى أخاه فيه، فلم يكن من أخيه إلا أن بادره بنفس الابتسامة ومن ثم اشتركا في الضحك معاً .

أما أخوه عمورا فقد زف على شقراق بعد أربعين يوماً من زواج أخيه، فالتقاليد تحكم بذلك وإلا أصبحت إحداهن عاقر إذا ما زُفتا في يوم واحد، وظل ثلاث ليالٍ في الدار وخرج في صباح اليوم التالي وكان بادياً التعب عليه، حتى إذا ما وصل المتجر جلس على أول دكة وقع نظره عليها، ولما رآه أمورا بهذا الموقف تذكر أيام زواجه وبدأ بالضحك على أخيه وأيامه فلم يكن من أخيه إلا أن بادله نفس الضحك .

ازدهرت تجارتهما، وأصبح متجرهما لا يسع البضاعة، فاستأجرا محلاً جديداً أوسع من القديم، وعملا جزءاً منه مكتباً لاستقبال المشترين والبائعين، مثلما استأجرا بعض العمال

والإداريين ليساعداهما في إدارة العمل، ومن ثم استرجعا الأرض الزراعية التي باعوها بسبب المتجر، أوكلا الأمور الحسابية لرجل يدعى (أبسيم) وهو رجل متوسط العمر لديه معرفة في أسعار البيع والشراء مثلما لديه خبرة فيما يدور في المدينة، قال :

- هناك إشاعة تقول أن الملك الجديد سيصدر مجموعة من التشريعات سوف تغير وجه المدينة وحياتها .

قال عمورا :

- المهم أن لا تغضب الآلهة ؟

قال أمورا :

- المهم أن ينظم الحياة المدينة ويوقف الحروب .

قال أبسيم :

- الأيام حبلى بالمفاجآت، وعما قريب سنعرف كل شيء .

ظلت شجرة الأرز تلح على أمورا بأن ينفصل بعمله عن أخيه، وأن يفتح متجراً لوحده، خاصةً بعد أن أنجبت بسمان وسعدان وفرحان، أما شقراق فقد أنجبت مشدي ومعدي وفتاة جميلة أسمتها جنة، وهذا ما أغاظ شجرة الأرز كثيراً لكونها لم تستطع أن تنجب فتاة لتؤول اليها ملكيتها.

لم تكن أم شجر الأرز و شقراق ببعيدة عن المنازعات الداخلية التي تعتلج داخل نفس أبنتها الكبرى، وكذلك كانت على اتصال ومعرفة بكل ما يدور داخل المتجر من خلال أحد العاملين

فيه، لذلك فقد أولمت وليمة لابنتيها وأزواجهن، فقد كانت صحتها ليست على ما يرام، ورغم ذلك رفضت والدتهما رفضاً قاطعاً تقسيم المتجر إلى قسمين أو تصفيته لإحداهن، لعلمها المسبق أن أبنتها شقراق وزوجها عمورا أكثر ميلاً للطيبة والمسالمة مع الآخرين، بل وهم أكثر ميلاً للمعبد منه إلى التجارة والمشاطرة مع الآخرين، فلم تنبس أيٍ منهن بكلمة رغم الغضب وعدم الرضا البادي على شجرة الأرز في رفضها للموضوع، وفي أحدى الليالي التي غاب فيها أمورا عن البيت حلمت شجرة الأرز فنهضت من نومها مذعورة بعد أن تلبسها الخوف، فذهبت إلى بيت أهلها، وقصت رؤياها على أمها قائلة :

رأيت أنني واقفة في حضرة آلهة العقم والجدب

أتوسلها بأن تمنح أبنائي الذرية الصالحة

وأن ترزقني بفتاة تحمل أسمي وتورث أموالي

لكنها رفضت طلبي وقالت ؟

لقد أكلت من شجرة التين ذات العين الواحدة

شجرة التين تملك عيون القطط

أبناؤك لا يتزوجون أبدا

وسيتناثرون في الأرض

يصبحون نسياً منسيا

لينقطع عقبك الى الأبد

فقالت الأم :

- هذه الرؤيا صحيحة فقد منعتك أنت وأختك من أن تأكلا من شجرة التين في أقصى البستان، فاستجابت أختك لذلك ولكنك كنت تذهبين خلسة إلى تلك الشجرة وتأكلين منها، الثمر الناضج ذو العين الطولية، ولكن إياك أن تقصي رؤياك على زوجك أو أمه، سنذهب إلى المعبد لننذر النذور حتى تزول عنك لعنة القطط هذه، عسى أن يستجيب رب الأرباب لتضرعاتنا ويرفع اللعنة عنك وعن أبنائك. بكت شجرة الأرز بكاءً شديداً، على ما حل بها وأبنائها .

بدأ الملك الجديد بوضع شرائع تنظم حياة المجتمع، بعد أن كانت تتبع اجتهادات المعبد، والأعيان، وأمر بكتابة تلك الشرائع على لوح من البازلت يبلغ طوله أكثر من ستة أمتار وبعرض مترين ونصف، في وسط المدينة، وبالفعل بدأ بعض الأسرى من الذين يعملون بالسخرة بنقش تلك القوانين على العمود، حتى فاقت فقراته الــ(٢٠٠) فقرة ما بين المقدمة والقانون بحد ذاته، والخاتمة، تنظم حياة الناس بكل اختصاصاتها، ابتدءاً من الزراعة والصناعة والبناء والري مروراً بالقوانين الجزائية، التي تعاقب السارق والمقصر والمعتدي .

أصبحت الأوضاع بالمدينة غير مستقرة نتيجة هذه التشريعات وقد انقلبت رأساً على عقب، لقد أصبح لكل ذي حق حقه حتى العبيد والمومس والراهبات، ولكن ضمن تشريعات لم

يعتد المجتمع عليها بسهولة، وكانت في عمومها تنحو إلى بناء مجتمعي مدني يقوم على أساس القانون، وحماية الممتلكات العامة، وينظم أمور المجتمع في عمومه، والأهم من كل نلك لم يزعم الملك الجديد أنه سليل الآلهة أو صاحب ذات إلهية، ولكنه أدعى أنه قريب من الآلهة إلى درجة الخليل .

دخل أمورا المتجر ووجد كعادته أبسيم يشرف على إدخال البضاعة التي اشتروها من الفلاحين ... بادره بالسلام وسأله عن آخر التشريعات، رد أبسيم :

- أنها حقيقةً تشريعات جديرة بالاحترام خذ عندك مثلا هذا القانون **(إذا سرق سيد ثوراً أو شاة أو حماراً أو خنزيراً أو قارباً، إذا كان (المسروق) يعود للإله أو للقصر، فعليه أن يعطي ٣٠ مثلاً. أما إذا كان يعود إلى مسكين، فعليه أن يدفع ١٠ أمثال كاملة، إذا لم يكن لدى السارق ما يعوّض به فإنه يعدم) .**

قال أمورا :

- هكذا هي قوانين كل الحكام، يضعون العقاب، قبل الثواب، ومن ثم لماذا لم يوفر الحاكم الظروف المناسبة للمعيشة ومن ثم يصدر أحكام العقوبات ؟

- ولكن في الأقل ليردع السرقة التي انتشرت في المدينة .

- وهل هناك تشريعات في ما يخص النساء ؟

- نعم فخذ عندك هذا التشريع (إذا قبض على امرأة مضطجعة، مع سيد فيجب عليهم أن يوثقوهما ويلقوهما في الماء. ويمكن لزوج المرأة أن يبقي زوجته على قيد الحياة إذا رغب، كما يمكن للملك أن يخلّي حياة أمته) .

- هذا يعني أن عليّ أن آخذ حذري في الأيام المقبلة .

ضحك الاثنان ومن ثم دخل أمورا إلى المكتب لمراجعة بعض الحسابات، ثم تبعه عمورا... تناقشا في موضع التشريعات والقوانين الجديدة وخاصة فيما يخص الزراعة، وكل ذلك شجعهما على التفكير بجدية للعودة إلى أرض أمهم ومحاولة إعادتها ومن ثم زراعتها عن طريق مستأجرين، فقال عمورا لابد أن توافق زوجتي على هذا الرأي فلنجتمع هذه الليلة عند أمهن ونفتح الموضوع وليدلِ كلٌ بدلوه .

اجتمعت العائلة برئاسة الأم والابنتين وأزواجهن، وبعد أن أتموا العشاء، بادر عمورا بالقول:

- زوجتي العزيزة ما رأيك لو أعدنا زراعة الأرض التي تملكها أمي، بعد أن نستصلحها.

- ولكن يجب تحويل ملكيتها أولاً باسمي ثم نبدأ بعملية الاستصلاح والزراعة ؟

قال أمورا :

- لم يعد بعد اليوم من أن يكون كل شيء باسم النساء لقد سنت التشريعات الجديدة حقوق الزواج لكل طرف من الأطراف، حتى الدين فلم يعد الملك هو الله، أو أبنه، وإنما هو خليل الله .

لم تستطع الأم صبراً على ما يقول أمورا فقالت :

- وماذا تريد من قولك هذا ... أن تبقى الأرض باسم أمك وتستصلحها وتزرعها من أموال ابنتي ؟

- وما الضير في ذلك إذا كانت الأمور بالمحصلة النهائية تعود لعائلتنا نحن الاثنان .

- هذا لا يمكن ... بل يكاد يكون مستحيلاً ؟

- أن التشريع الجديد يبيح للرجل إقامة دعوى (إذا كانت زوجته سيئة، سمح له التشريع استبعادها، في حين يبقى

الأطفال ومهرها؛ أو أنه يحق له إنزالها إلى وضع جارية في منزله الخاص، حيث تنال الطعام والملبس) .

- أكمل نص التشريع والذي يقول (**يحق للزوجة أن تقيم عليه دعوى متهمة إياه بالقسوة والإهمال، وإذا أثبتت صحة دعواها، تكسب انفصالا شرعياً، وتأخذ معها مهرها) .**

- نعم ولكن أكملي أنت النص الذي يقول (**لا ينال الرجل عقاباً آخر. إذا لم تثبت دعواها، لكن أثبتت أنها امرأة سيئة وعليه يجب أن تـُغرَق في النهر) .**

لكن عمورا لم يستطع السكوت وهو يرى المشادة وصلت إلى درجة قد تؤدي الى اللاعودة، فحاول تخفيف الخصام بين الطرفين، بعد أن ألتمس من أمورا السكوت ومن أم زوجته بأن تعطيه فرصة ليتحدث، وحاول جاهداً أن يبسط الأمر للطرفين وقال :

- نحن عائلة واحدة، وموضوع المال أو الأملاك وأي منا له حق التصرف ليس بالمشكلة ما زال كلّ منا يحب زوجته وله منها أطفال، وقد أثبتنا لكم حسن نيتنا خلال أكثر من عشر سنوات ونحن أصحاب العمل ونديره بما يرضيكن، فما الضير لو لم يسجل أخي الأرض التي سنزرعها باسم زوجته، أما عن نفسي فلو وافقت والدتي على ذلك فسأسجلها باسم زوجتي وحبيبتي شقراق .

لكن أمورا لم يرق له الكلام، فقد أحدثت التشريعات تغيرات جوهرية، في حكم المجتمع نزولاً إلى حكم الأسرة، وكون الرجل هو من يصد عن المدينة الغزو والشرور الأخرى فلابد أن يكون له حق السيطرة والتصرف في مال العائلة الذي هو جزء منها، فقال :

- أنا لا أوافقك الكلام، فأنا أريد حق التصرف ليس في الأرض الزراعية الراجعة لأمي، بل وأريد أن أتصرف في تجارتي بالعموم والمال المتوفر دون الرجوع إلى زوجتي ؟

حاولت زوجته أن ترد عليه، لكن أمها منعتها من الحديث، لقد فوجئت الأم بهذا الطرح، فهي مسبقاً على علم بأن أزواج ابنتيها، جاء من أجل موضوع الأرض الزراعية وكيفية زراعتها ثم تحول الموضوع إلى إعادة الموازنة الأسرية، وحقوق الزوج والأولاد والملكية فقالت :

- أنت تعلم جيداً أن الدار باسم ابنتي وكذلك المتجر ... أما ما يخص المال النقد والبضاعة الموجودة في المتجر وما في ذمة المشترين، فأنت أعرف به، وهذا يعنى إذا أردت الانفصال فستؤول كفة الرجحان لابنتي، وبالنسبة للأولاد فسيبقون عندها فلها حق الرعاية عليهم، وهذا يعني أنك ستخسر كل شيء .

- ليس المهم أن أخسر كل شيء بل المهم أن أربح نفسي، وكذلك فأنا سأتزوج من أخرى وهذا ما يبيحه التشريع الجديد لي، بينما تبقى هي حاضنة للأطفال دون زواج كما نص التشريع على ذلك **(لها الحرية في الزواج مجدداً، إذ لم يكن لها أطفال)** .

ظلت الأمور متشنجة بين العائلة بالعموم، ولم يستطع أحد إرجاع (أمورا) عن رأيه فبدأ باستصلاح الأرض ومن ثم أستأجر مجموعة من الفلاحين لزراعة الحبوب أما الجهة الأخرى من الأرض فبعد أن اشتراها وأعاد زراعتها بالأشجار، ثم بدأت الأمور تسيء مع أخيه عمورا، وفكر جدياً بالانفصال عنه في تجارته، لكن العاطفة والضعف الذي يتلبس أخاه يمنعه عن ذلك .

عمورا كعادته وبعد أن يتم عمله في المتجر صباحاً حتى الظهيرة يذهب إلى أحدى المعابد القريبة، ويتفكر في ملكوت السماء وكيف إن الرب أنتدب مجموعة من الأرباب لخدمة البشرية، مثلما بدأت التشريعات الحديثة تأخذ الجانب الكبير من تفكيره، فكثيراً ما كان يذهب إلى ذلك العمود الذي كتبت عليه التشريعات ويقف أوقاتً طويلة يتفكر بها ويناقشها مع نفسه ويجد فيها الكثير من الصحة، أما أمورا فيبقى في المتجر يراجع بعض الحسابات ويجالس التجار ويعقد صفقات البيع والشراء وبعد أن يتمها يجلس مع أبسيم يتداولون أمور المدينة فسأله عن التشريعات الجديدة فقال أبسيم :

- لقد أصدر الملك مجموعة من القوانين الجنائية التي ستجعل مدينتنا أفضل المدن تنظيماً وأقل المدن بالجرائم والمشاكل .

- وما هي تلك القوانين ؟

- أسمع يا سيدي بعض من هذه القوانين وستعجب بها كثيراً .

- **(إذا، فقع سيد عين ابن أحد الأشراف، فعليهم أن يفقعوا عينه، إذا كسر سيد عظم سيد آخر، فعليهم أن يكسروا عظمه، إذا قلع سيد سن سيد من طبقته، فعليهم أن يقلعوا سنه).**

- حقيقةً أنها قوانين قوية، ولكن تتم في داخلها على أن المشاكل تحدث بين الأشراف فقط وليس مسؤولي المعابد والمساكين من الناس ؟

- أعتقد يا سيدي أن كلامك صحيح لأن أصحاب المعابد مستقلون في أعمالهم، أما المساكين، فهم يدورون حيث كسرة الخبز وليس لهم طموح أكبر من ذلك ؟

- المهم أن يبتعدوا بشرهم وأطماعهم عنا ... بعد أن تنجز الحسابات أقفل المتجر وعد إلى دارك .

ثم أنطلق أمورا يتجول في الأسواق ليراقب الأحوال المتغيرة باستمرار داخلها، مثلما لاحظ بعض القوافل الخارجة من المدينة باتجاه الغرب فقد بدأ بعض الأسرى من الذين أسروا أبان الحروب السابقة، يكتسبون حريتهم، ويرجعون إلى بلادهم الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بينما من أراد البقاء أصبح حراً وتزوج وكون أسرة مثل باقي أفراد المجتمع، وبدأت اللغة تتوحد بعد أن كانت كثيرة فصارت إلى ثلاثة، بين الطبقة الأرستقراطية ورجال الأعمال والعبيد، مثلما بدأت المدارس البسيطة تفتح أبوابها، وبدأت المدينة بالازدهار والتوسع بعد أن أباحت التشريعات التجارة الخارجية لتصدير القمح، والأصواف، والزبد والتمور، واستيراد بعض الأحجار الكريمة والمعادن مثل الفضة والنحاس، إضافة إلى الرقيق، مثلما ازدهرت التجارة الداخلية بعد بناء السفن والقوارب وأصبح التنقل عن طريق النهر

للتجارة بالسلع المختلفة كالمنتجات الغذائية، والأصواف، والأخشاب، والطوب ...الخ،

فكر عمورا بالتجارة الداخلية عن طريق شحن بعض الأنواع من التمور والزبد والأصواف والجلود إلى باقي مدن المملكة في شرقها، فأستشار أخاه في ذلك، فلم يمانع، أما زوجته فلم يرق لها ما ينوي فعله، ولكن لم تستطع بعد اليوم من أن تمنع زوجها لما يريد، بالفعل جهز سفينة كبيرة وحمّلها بكل ما أستطاع من بضاعة، وأبحر شرقاً، أما أخوه أمورا، فقد أصبح من الأعيان بعد أن أدار التجارة والزراعة، وأصبح لديه من الحشم والخدم، ما يعد ملكاً داخل مملكته، ولم تستطع زوجته إلا أن تجاريه بعد أن نجحت بيده الزراعة وأصبح من التجار الكبار في مجال الحبوب والتمور إضافة إلى تجارته في المتجر ؟

انقطعت أخبار عمورا بعد أن تواردت أخبار عن ارتفاع منسوب المياه مقروناً بهبوب العواصف وانقلاب بعض القوارب والسفن في وسط النهر، فأصبح أمورا مسؤولاً عن العائلتين، وفكر ملياً بأن يتزوج من امرأة أخرى، كان قد شاهدها عدت مرات داخل البستان وهي ابنة أحد الفلاحين من الذين يشتغلون في أرضه، أخذ رأي زوجته في ذلك، لكنها رفضت رفضاً قاطعاً وقالت :

- إذا كنت قد طاوعتك في موضوع عدم تحويل ملكية الأرض باسمي وغيرها من أمور التجارة، فلا يمكن أن أطيعك في موضوع الزواج هذا .

- ولكني مصر على الزواج منها، وافعلي ما تريدين .

- ننفصل .

- أنت حرة في ذلك .

- فالتشريع الجديد يبيح لي ذلك، ولكنك ما زلت على عقلك القديم .

هكذا عادت شجرة الأرز مكسورة مخذولة إلى بيتها، بينما بقيت شقراق في الأرض الزراعية معززة مكرمة رغم انقطاع أخبار زوجها عمورا، أما أمورا فقد نفذ ما أراد وتزوج من إحدى بنات العبيد من الذين يعملون في المزرعة، فقرعت الطبول ونحرت الخرفان، وتم مباركتهم في أحد المعابد القريبة، ويبدو أن زوجته الجديدة والجميلة الصغيرة استحوذت على عقله، واستطاعت أن تنسيه زوجته الأولى، ورزق منها بولد جديد أسمه حمورا، الذي أخذ من أمه الجمال والبساطة وخفة الدم، وأصبح لدى أخوته الثلاثة أخاً رابعاً بعد أن تزوجت أمهم فجاءت بهم إلى أبيهم ليرعاهم .

مضت الآن سنتان على اختفاء عمورا، وأصبحت شقراق راعية للكل بما فيهم حمورا، وكانت تدير أمور الجميع، دون تمييز، ويرجع لها الكبير قبل الصغير من باب الاحترام حتى أمورا ... بلغت أعمار الأولاد بين الثانية عشر و الخامسة عشر، ولكن أبرزهن كانت الفتاة (جنة) فقد برزت مفاتنها، وقد أخذت من أمها كل الصفات الجميلة فهي تكاد تتفطر من كثر الاحمرار في خديها، وكأنها فراشة شقت شرنقتها تواً، فبدأ الرجال يحومون حولها، ولكنهم لم يستطيعوا التقدم لخطبتها، لما لأهلها من حظوة ومركز مالي واجتماعي كبير، إضافة إلى ما تحمله من صفات الجمال والرشاقة ما يجعل الرجل الذي يريد أن يتقدم يراجع حساباته أكثر من مرة قبل الشروع في ذلك، حتى جاء اليوم الذي تقدم فيه شاب إلى المتجر يسأل عن أمورا، ثم أستدل عليه، طالباً يد جنة، فما كان منه إلا أن قال له أن هذا الأمر بيد خالتها ولكم أن تذهبوا وتأخذوا الأمر منها، في اليوم التالي ذهب الشاب مع أهله، طالبين يد الفتاة، لم تمانع شقراق ذلك ولكنها قالت إن الأمر بيد الفتاة ولابد أن توافق أو ترفض، جاءت جنة لتقدم بعض الفاكهة للضيوف، جلست بالقرب من خالتها، ثم سألت خالتها الفتى :

- ما هو نوع العمل الذي تمارسه .

فقال الفتى :

- أنا أعمل أجير عند تاجر كبير في المدينة .

- وأين ستسكن ؟

- سأسكن مع أهلي فعندهم بيت كبير في وسط المدينة، وسأدفع المهر الذي تطلبونه .

لم تمانع شقراق فقد وجدت في الشاب الرجولة الكافية لتأتمن ابنة أختها عنده، ولكن ليس لها من أن تجزم بالأمر دون أن تأخذ رأيها ... فقالت الفتاة :

- لا مانع عندي من قبول الزواج ولكن بشرط ؟

- وما هو هذا الشرط ؟

- أن تبحث عن أبي وتأتي به أو بأي خبر عنه وعندئذ يمكنني أن أفرح وأوافق عليك.

- لا مانع لدي في تحقيق شرطك هذا، ولكن دليني أين ذهب وسألحق به وأعود لك به أو بأخباره .

- لقد ذهب قبل عامين بتجارة إلى شرق المملكة ولم يعد حتى يومنا هذا ؟

- لا تحملي هم ذلك من اليوم السابع سأشد الرحال إلى هناك ولا أعود إليكم إلا والأخبار السارة معي .

أنفض مجلس الخطوبة، وقد كسبت الفتاة احترام الجميع بما فيهم الشاب، ومثلهم عمها، عندما سمع بشرط ابنة أخيه، وبدأت جنة تنتظر الأيام لعل وعسى تفرحها فبعد أن كانت معلقة بأمل واحد هو عودة أبيها أصبحت الآن تنتظر الاثنين .

لكن أم حمورا لم تطق الوضع بعد اليوم فقد أباح لها التشريع الجديد، خاصة إذا أنجبت ولداً من أن تكون بموازاة السيدة الأولى

وبما أنها مطلقة من قبل زوجها وما تكون شقراق إلا زوجة أخي زوجها فلابد أن ترجع إليها الأمور، وبالتالي أخذ رأيها في موضوع زواج (جنة) وكذلك الأمور الأخرى، فبدأت تثير المشاكل في البيت، ومن ثم تتدخل في كل صغيرة وكبيرة من أمور الزراعة إلى التجارة، وكذلك شؤون الأولاد، إلا أن ذلك لا تحتمله شقراق فجمعت العائلة في اليوم السابع وقد أولمت لهم وليمة كبيرة ... ثم قالت :

- اليوم يجب أن نوضح كل شيء للعائلة، فأمورا قد سلم أمور العائلة وإدارتها بيدي، ولكن أم حمورا تريد مشاركتي في ذلك لكونها قد أنجبت ولدا وبذلك تكون حرة بعد أن كانت من العبيد، فالتشريع الجديد ينص على ذلك **(إذا سيد تزوج زوجة وأعطت لزوجها جارية فولدت أولاداً، وإذا أرادت هذه الجارية أن تتساوى بعد ذلك مع سيدتها لأنها ولدت أولاداً، لا يجوز لسيدتها أن تبيعها بالفضة أو تضعها في السلاسل أو تعدها من الإماء)** ولكن في نص آخر يقول **(لا تكون مساوية للزوجة)** وبالتالي فالحل هو طردها وأبنها إلى الشرق .

لم يستطع أمورا رفض طلب شقراق، مثلما لم تستطع زوجته وأبنه حمورا من الوقوف بوجهها، بعد أن جمعت أولادها وأولاد أختها، والأهم من كل ذلك هو أن زوج أختها لا يستطيع أن يرفض لها طلباً خاصةً وأنه ضمن التشريع صحيح، فهي وأن أصبحت حرة، ولكنها في صميم تكوينها من العبيد، فشدت الرحال في اليوم الثاني مع أبنها بعد أن أكرمها زوجها ببعض المال والمؤن ؟

بدت الأمور مستتبة وأصبح الأولاد شباباً، يبحثون عن زوجات، ولكن شقراق قد أثارت انتباههم، أن لا يختاروا من بنات العبيد مهما كان جمالها أو عمرها، كما فعل أبوهم أمورا، فقد كانت بساتينهم، ملأى بالعبيد من النساء والرجال وبناتهم، وبالفعل أختار أولاد شجرة الأرز (معدي ومشدي) بنات قائد في الجيش الملكي ومقرب من الملك، أما فرحان وبسمان فقد رفضا فكرة الزواج، بعد عدة محاولات باءت بالفشل ولعدة أسباب، وظلا ينزوان مع الفتيات من العبيد وكذلك مع بعض راهبات المعبد، لكن سعدان كان يحب جنة في داخله حباً جماً وقد كبرت أمام عينه، ولكنه لن يستطيع بعد أن تقدم أحدهم لخطبتها من البوح به بعد ذلك، خاصة وأنه أثبت جدارة وتضحية كبيرة في البحث عن أبيها وسط المصاعب والمجهول فظل مضرباً عن الزواج ومنكفأً على ذاته ولا يفكر في الزواج أبداً .

ولأن من عادات المدينة وخاصة في بيت فينوس وجميلة ومن ثم ذريتهم، إذا كان الزواج فلابد أن يقدموا بعض النذور والأضحية في مدينة (قربان الله) وهو في الوقت نفسه، من طقوس الحج الواجبة عليهم، وبالفعل جهزوا العدة والماشية واتجهوا إلى هذه المدينة كما فعلوا أكثر من عشرين عاماً ، لم تكن المدينة لتبعد أكثر من (٦٠) فرسخاً وبالتالي خروجهم في الصباح الباكر يعني وصولهم عصراً، لم يكن أمورا يستطيع ترك المتجر والمزرعة وشؤونه العامة ففضل البقاء، ومثله سعدان كونه لم يتزوج بعد، أما

مشدي ومعدي وزوجاتهم، إضافة الى شقراق وجنة فقد شدوا الرحال إليها وعندما وصلوا، فتحوا متاعهم ونصبوا الخيام بالقرب من المعبد، مندهشين .. آواه ما هذا التغيير الكبير الذي حصل في المعبد وما حوله، لقد أصبح شبه مدينة حيث بدت بعض الدور البسيطة تظهر على سطح البسيطة كأنها براعم جذورها بيضاء تحاول أن تمسك الأرض، مثلما وجدت بعض المحال البسيطة وكذلك بعض الرجال من الذين يبيعون الماشية لقاصدي المعبد .

المفاجأة الكبيرة التي كانت تنتظرهم والتي لم تكن لتخطر على بال أي منهم، ففي المكان الذي يجب أن يقفوا فيه عاقدين أيديهم إلى صدورهم مغمضي الأعين، يتضرعون إلى الرب كل حسب ما يريد، لاحظت شقراق أحد السدنة من بعيد وهو أقرب إلى زوجها عمورا في الشبه والشكل، ولكنها لم تكن لتصدق عينيها فاقتربت أكثر منه، نعم أنه هو ... فصرخت بأعلى صوتها أمورا ...أمورا ... ألتفت إليها الراهب وقال لها :

- هل تقصديني ؟

- نعم أوَ لست عمورا ؟

- انتظري أيتها السيدة المحترمة، ولا تتعجلي الصراخ، وتعالي إلى جنبي ؟

- أنتظر أنت واصدقني القول ... ألست أنت عمورا أم لا ... ولكن أنتظر كيف لزوجة لا تعرف زوجها حتى لو مضى على غيابه أكثر من عقد ؟

- سوف أخبرك فيما بعد، ولكن أتمي طقوسك الدينية وسألاقيك خارج المعبد .

لم تكن لتصدق ما رأته عيناها، وظلت وكأنها امرأة فاقدة العقل، وأتمت دون وعي ما جاءت من أجله في أول يوم وخرجت إلى خارج المعبد بانتظاره، بقي الشك يأكل في نفسها، أليس هو، ولكن ما ذلك الجرح العميق على جهته اليمنى، ولماذا حاول تنكري، بدأت الأفكار تأخذها يميناً ويساراً ... والأولاد يتساءلون ماذا بك يا خالة ومثلهم زوجاتهم، لكنها لم تعرهم أي أهمية .

خرج عمورا من المعبد بالاتجاه الذي اتفقوا عليه، وجدها والضياع المقرون بالمع مستحوذ على عقلها، قال :

- كيف حالك يا حبيبتي ؟

- ....

- أعرف أن الموقف صعباً جداً عليك، ولكن سأشرح لك ما جرى لي وعند ذاك ستعذرينني.

- أولاً هل أنت عمورا أم لا ؟ ولماذا ينادون عليك باسم الراهب داخل المعبد ؟

- سأقص عليك الموضوع كما جرى ، بعد أن أبحرت في القارب الكبير محملا بالضائع من شتى الصنوف والأنواع، واجهتنا مشاكل كبير، منها صعود الماء إلى مستوى عالٍ وكذلك هبوب بعض العواصف مما أدى بنا

إلى رمي أغلب البضائع إلى النهر، حتى إذا ما هدأ النهر واستتبت الأمور رحنا نبحر ثلاث ليالٍ حتى وصلنا نهاية النهر والذي عنده يتصل بالبحر الكبير، عندها أنزلنا ما تبقى من البضائع إلى الضفة ثم نقلناها إلى مخازن كنا قد استأجرناها، وبعد أن سكنا أحدى الدور القريبة من الساحل بعنا البضاعة بأسعار قد عوضت ما خسرناه في عرض النهر .

في هذه الأثناء كنت قد تعرفت على بعض التجار، وأقمت بعض العلاقات التجارية معهم على أمل أن أعود لهم بتجارة في أقرب وقت، وفكرت بعد أن حصلت على مال لا بأس به أن أعود إلى مدينتي ولكن عن طريق البر، لأنني أردت زيارة مدينة (قربان الله) وبالفعل التحقت بمجموعة من السيارة من الذين يشرفون على القوافل الذاهبة من وإلى المدينة المقدسة .

وبعد يومين من السفر المضني، هاجمتنا مجموعة من قطاع الطرق، فأخذت النساء والجمال والماشية، وقتلت بعض من قاومهم، مثلما أخذت كل ما تبقى عندنا من مال، فلم يكن من رئيس القافلة بعد أن خسر كل شيء إلا أن يبيعنا كعبيد في مدينة (قربان الله)

– وما هذا الجرح الذي في وجهك ؟

- أراد أحد التجار أن يراوغهم وأن يعطيهم جزءاً من ماله، فما كان منهم إلا أن ضربوه حد الموت وأردت أن أنقذه فما كان من أحدهم إلا أن ضربني بخنجره على رأسي ولم أستطع أن اخلص وجهي إلا وكان الخنجر قد نزل على مقدمة رأسي ليشق وجهي بهذا الشكل الذي ترينه الآن .

- ولماذا لم تحاول أن ترسل أحدهم أو تبعث برسالة لكي نأتي ونخلصك مما أنت فيه.

- بأي وجه أرسل لكم رسالة بعد أن خسرت تجارتي ومالي وشكلي، لم أكن أستطيع مواجهة أي شخص ممكن أن يستدل عليّ، حتى يخبركم بمكاني .

- إذاً اليوم ينتهي كل شيء، وسنذهب إلى رئيس الكهنة، ونعتقك منه .

هكذا عادت العائلة بكسبٍ عظيم، وقد أقامت أمورا وليمة كبيرة حضرها القاصي قبل الداني، ولمدة ثلاث أيام ظلت الخراف تنحر وأطباق الرز تحمل على الموائد، حتى سكنت الفرحة قلوب العائلة وجن الليل عليهم وناموا في سباتٍ عميق .

في ظهيرة اليوم التالي جلس الأخوة عند باحة الدار الكبير الذي يضم جميع أفراد العائلة، فابتدأ عمورا الكلام بالسؤال عن زوجة أخيه شجر الأرز، فقص عليه أمورا القصة كما حدثت وكذلك قصة أم حمورا وطردها إلى مكان في الجزيرة، وأن الأوضاع مستتبة، ولكنه لا يستطيع العيش بعد اليوم دون زوجة ترعاه، ولكن الوقت سابقاً لم يكن مناسباً، ولكنه اليوم أصبح حتمياً ولابد من اتخاذ هذه الخطوة بأسرع ما يمكن .

في هذه الأثناء أشيع خبر وفاة أبسيم في مركز المدينة، ثم جاء أحد عمال أمورا وأخبره أن السيد أبسيم وهو متجه نحو المتجر بخطوات بطيئة بعد أن أخذ منه الكبر مأخذاً وإذا بعجل هائج قد نطحه وأرداه قتيلاً ... فقال أمورا :

- مسكين أبسيم على هذه النهاية المؤسفة ... قال مخاطباً أخاه

- أنكر مرة أنه قرأ لي أحد التشريعات التي تقول : **(إذا عجل، وهو مار في الطريق، نطح رجلاً ما وآماته، هذه القضية لا تستوجب التعويض)** .

فقال عمورا :

- ولكن يجب أن نعوضه نحن فقد أخلص لنا في عمله، ولابد من مكافأته على ذلك .

كانت أطراف الإمبراطورية في تغير واضطرابات مستمرة، وبالتالي كان بين الفينة والفينة ترسل الجيوش إلى تلك التخوم لإطفاء الفتن والقلاقل، وفي أحد المرات ذهب جزء من الجيش باتجاه الجهة الشرقية لإطفاء فتنة قد وصلت حد الانفصال عن الإمبراطورية، وقد كمن الانفصاليون للجيش الآتي لمدينتهم، وأوقعوا بالجزء الكبير من قادته كان ضمنهم أب زوجتي، شر هزيمة، فما كان من الجيش إلا أن تقهقر إلى الوراء حتى جاءهم المدد ليقضوا عليها، ثم عادوا بجثامين أولئك القادة وسط تشييع مهيب عند الشارع الذي يستعرض فيه الجيش أمام الملك وقيادات الجيش .

ثم أقيم عزاء خاص للأب، وعم الدار حزناً شديد، دام أربعين يوماً، وبعدها أقترح عمورا على أخيه بأن يتزوج من أميديا بعد أن أصبحت أرملة، ولكون بناتها الاثنتين عند أولادي، لم يمانع في ذلك، وأناطوا الموضوع لشقراق لكي تفتح الموضوع معها، بعد أكثر من شهر، أعلنت مراسيم الزواج بشكل بسيط وزفت أميديا الى أمورا .

بعد سنة كانت أميديا قد وضعت أول صغارها، أصر أمورا على أن يسميه هرقل تأسياً باسم جده، في هذا الوقت أجتمع

عمورا مع زوجته وأولاده وزوجاتهم، وعرض عليهم موضوع الرحيل إلى حيث مدينة (قربان الله) والاستقرار فيها، كان الموضوع صدمة للجميع، كيف لهم أن يتركوا هذا العز والجاه وكذلك أقرباءهم وأصدقاءهم وكل متعلقاتهم الأخرى، استفاض عمورا في شرح الأمر لهم وإن تلك الأرض أرض مباركة وجد الراحة والأمن فيها رغم أنه كان فيها من العبيد وليس الأحرار، وبالمال الموجود عندهم يمكن أن يشتروا هناك بعض الأراضي الزراعية والأملاك في مركز المدينة ويبدأوا حياتهم من جديد، لكن أولاده عارضوا بشدة فكرة رحيلهم واستقرارهم في تلك المدينة، خاصة بعد أن أصبحت أم زوجاتهم بالقرب منهن، أما زوجته شقراق فلم يكن لها من أن تبدي رأي تخالف فيه رأي زوجها، وكذلك أبنته جنة، ثم طلب سعدان أن يذهب معهم فلم يعارض عمورا ذلك، طرح الموضوع على أخيه وإراد منه مقاسمة المال والمتجر والأراضي الزراعية خاصة وأنه قد تزوج من أرملة متمكنة ماديا بالإضافة إلى وضعه المادي الممتاز، أما أمورا فرفض فكرة رحيله أصلاً، ولكن أمام إلحاحه، رضخ لطلبه، وطلب بعض الوقت ليستطيع فيه جمع للمال وتصفية الحسابات بينهم .

كان عمورا منذ تكوينه الأول يميل إلى التقرب من الآلهة ومعابدهم، وزوجته كانت تعرف ذلك جيداً، فهو إنسان مطيع لزوجته ومسالم في أغلب الأحيان، لكنه في موضوع الآلهة والمعابد كان يجد في ذلك توحد كبير معهم، ويبدو أن فترة بقاءه

في المعبد المقدس كعبد وخادم للكهنة والرهبان وللمعبد المقدس (قربان الله) قد جعلته أكثر التصاقاً، وكان لامناص من رحيل الجميع معه ولكن بعد موافقتهم .

استطاعت أميديا ومن خلال علاقاتها الواسعة بنساء الجنرالات وقادة الجيش من أن ترسل أبناءها إلى مدينة (قربان الله) مع بعض العسكر ليكونوا دائمين فيها كثكنة عسكرية تحمي الزائرين، إضافة إلى تأمين الحماية لأهالي المدينة، كما استطاعت أن تقنع زوجها أمورا بعدم تقسيم الأراضي والأملاك مع أخيه، ويمكنه وبمساعدتها من توفر المال الكثير ما يؤمن لهم شراء أرض زراعية هناك ومن ثم يبنون دوراً لكل منهم، وبذلك لم يعد لهم من حجة لعدم الذهاب مع أبيهم إلى المدينة، وهكذا شدوا الرحال نجو مدينة (قربان الله) .

لم يكن للكهنة من رضا وهم يرون من كان عبداً في الأمس سيداً اليوم وبنفس المكانة التي يحضون بها، مثلما لم يرق لهم أن يأتيهم بهذا الثراء فيشتري أفضل أرض زراعية تطل على نهر الفرات، ويبني عليها أفضل الدور، لكن أولاده ورتبهم العسكرية ومكانتهم الجديدة التي أضفت على المدينة نوعا من الأمن والأمان وكذلك القوة والحزم، جعلتهم في تناقض من أمرهم، ليس هذا فحسب، بل بدأ عمورا يفتح داره لمساعدة المساكين من أهل المدينة والوافدين عليها، ويطعم كل من لم يجد الطعام، كذلك فقد تكشف للجيش أن الضرائب التي كانت تدفع إلى الملك من

مدينة (قربان الله) لا تساوي إلا الجزء اليسير مما يتم جمعه من قبل السدنة وكهنة المعبد ؟

بدأ أصحاب المعبد يرسلون النذور والهدايا إلى الملك في الوقت نفسه، يرسلون الشكاوي من العسكر الجدد والذين يعيثون في الأرض فساداً، وكذلك بعض الرسائل السرية التي تؤكد أن قادة الجيش الجدد وبمساعدة أباء زوجاتهم يدعون إلى انقلاب على الملك، والإتيان بحاكم جديد يكون لهم فيه حصة وأمر ؟

عاد خطيب جنة إلى المدينة بعد أن قضى أكثر من سنتين يبحث عن والدها، مخذولاً لأن ذلك كان مهرها، وهو بالتالي لن يحصل على خطيبته كزوجة، لكنه تفاجأ بالأخبار الجديدة في أنهم عثروا عليه في مدينة (قربان الله) وقد شدوا الرحال إلى هناك ليسكنوا فيها، فأصر على أن يلحق بهم، ويتم زواجه منها، لم يتم أكثر من أسبوع حتى سافر إليهم، والتقى بالعائلة هناك، وعندما رأته جنة فرحت فرحاً كبيراً، وقصت لوالدها قصة هذا الشاب الشهم الذي عمل المستحيل من أجل إرضاءها وها هو قد فقد سنتين من عمره يبحث عنك، حتى عاد إلى المدينة ليسمع الأخبار الجديدة ويشد الرحال من جديد إلينا ليتم ما بدأه، لم يمانع الأب في أتمام زواجهما، وأعلن في المدينة ذلك وحدد موعد الزفاف، وتم دعوة كل الكهنة والسدنة ووجهاء المدينة وفقراءها، لكن كهنة المعبد وسدنته وبعض من تجار المدينة وبالاتفاق مع بعض العسكر، بعد أن وعدوهم بالهبات والأراضي، اتفقوا على أن يرسلوا رسالة مستعجلة إلى الملك يخبروه بأن الكاهن الجديد وأبناءه قادة الجيش في المدينة يريدون إعلان المدينة مملكة مستقلة عن المملكة الأم بعد أن اتفقوا مع إمبراطورية الشرق على ذلك، ولابد من أيجاد حل سريع لذلك وإلا انقسمت المملكة إلى ملكات صغيرة وهذا ما تريده مملكة الشرق.

أرسل الملك في اليوم المتفق عليه جيش جرارا ً، ليحرر المدينة ممن يريدون إعلان الثورة عليه، كان بيت عمورا عبارة

عن قطعة مضيئة من شعل النار التي ملأت حدود البستان وداخله، إضافة إلى مداخل الممرات التي تؤدي إلى حفل الزفاف، مثلما بدأ الناس بمختلف شرائحهم بالتوافد على البستان بعد أن أولمت الولائم، وخاصة الفقراء والمحتاجين، كان الجيش القادم من المملكة يرصد هذه التحركات وتيقن أن ما وصلته من أخبار صحيحة، أما الكهنة فقد اتفقوا مع ثلة من الجيش الذي كان في المدينة أنه في اللحظة التي يتم فيها إعلان الهجوم على البستان، ينقضون هم مباشرة على عمورا وأبناءه بما فيهم العريس والعروس ويقتلونهم شر قتلة بحجة أنهم قاوموا بدل الاستسلام، جرت الأمور كما خطط لها من قبل الكهنة وسدنة المعبد، وفي اللحظة التي أعلن فيها أمورا زواج أبنته من العريس (جودي) أنقض الجيش على البستان وأحتل مداخله وممراته، وطلب من الجميع وقف الحفل، إلا أن ثلة الجيش قد دخلت إلى داخل الدار وأردت العائلة كلها مضرجة بالدماء .

نبح الكهنة الذبائح تقرباً إلى الله، مثلما عاد الجيش منتصراً يرفرف بأعلامه إلى المملكة، وسرعان ما وصلت الأخبار إلى عائلة أمورا، فجن جنون العائلة وخاصة أميديا بعد أن عرفت أن بناتها قد ذبحت شر ذبحة، فأصرت على الذهاب إلى مدينة (قربان الله) لترى أين دفنت أبنتاها، فما كان من العائلة إلا أن شدت الرحال إليها، لكن لحظة وصولها عرفت الأخبار من أن الكهنة قد دبروا كل ذلك، وأنهم السبب في المجزرة التي حصلت لأخيه وعائلته .

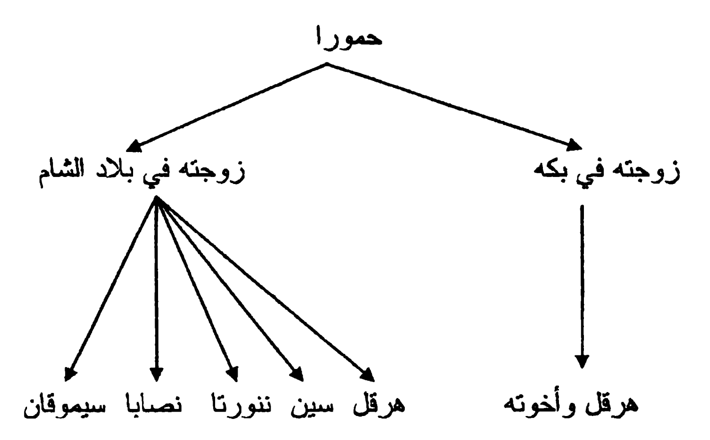
أصبحت العائلة كل سنة تذهب للحج، وزيارة مقابر العائلة، مثلما تنصب سرادق العزاء لها، في مدينتهم، وتولم الولائم ترحماً عليهم، بدأت صحة أمورا بالتراجع، حتى أتى اليوم الذي أرسل في طلب عائلته كلها، وهو مسجى على فراش الموت، يوصيهم خيراً بأميديا، وزيارة الحج كل سنة إلى أخيه، ثم ودع الحياة حزيناً على ما جرى لأخيه وعائلته، كان هذا العام عام الحزن، فقد قبض على فرحان مع امرأة وطبق عليه القانون الذي ينص (**إذا قبض على امرأة مضطجعة، مع سيد فيجب عليهم أن يوثقوهما ويلقوهما في الماء**)، أما أخوه بسمان فقد شارك في أحدى حروب المملكة ولم يعد حتى اليوم .

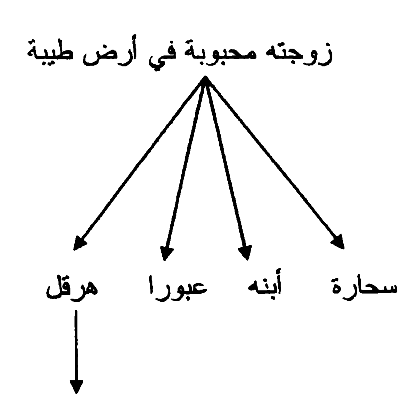
لم تكن الأوضاع لتستقر حتى هجمت أقوام بربرية على المملكة وبعد حرب شرسة سقط فيها الآلاف من الطرفين، أنهزم جيش المملكة شر هزيمة وانهارت المملكة، فدخل جيش الشرق إلى قلب المدينة وأول شيء فعله هو رفع مسلة القوانين التي كانت تحكم البلاد بالعدل ليشيع الخراب والبلاء بين الناس، وأخذها إلى حيث بلادهم ؟

(القسم الثاني)

العبور

مخطط الجزء الثاني





ولد لهرقل أكثر من هرقل وصادف أن كل منهم يحاول أن يبقي على هذا الاسم حتى يتذكر أنه من أصل الأب الذي جاء من المجهول من أقصى الجنوب الحزين، أما حمورا فقد عانى الكثير مع أمه، في بداية تأسيسهم لحياة جديدة في وسط الجزيرة، وأخطر مرحلة مرا بها هو نضوب الماء وهم في وسط الصحراء، وقاربا الموت إلى أن وصلا إلى نبع واستطاعا النجاة .

دخلا منطقة تدعى بكة، وهي أيضاً مقدسة، لا تحتوي على دور عبادة، ولكن على آلهة يقفون في وسط الشوارع والممرات وعلى رؤوس التلال، وداخل المحلات، حتى إذا ما وصلا إلى مركز المنطقة المقدسة وجدا نفسيهما في عالم غريب لم يألفاه، فقد رأى حمورا مكاناً عبارة عن غرفة مربعة وكبيرة في الحجم من ناحية الارتفاع خاصةً يطوف حولها الناس بمختلف شرائحهم وكان ذلك بيناً من خلال ملابسهم والمرافقين لهم ممن يحملون كرسي الجلوس أو بعض المظلات لأسيادهم، بينما البعض الآخر يطوف عارياً أو يغطي جسده المتهالك ببعض الملابس البالية طلباً لتحقيق الأماني ودرء الأخطار في أقلها أن لا يصبح أبناءه أو زوجته عبيداً يباعون في الأسواق سداداً لدين تراكم وأصبح حملاً ينوء تحته صاحبه .

جلس حمورا وأمه على أحد جوانب المعبد الكبير يترقبون هذه الأحداث بشغف وبعين المكتشف الجديد، وقد أخذ منهم الجوع

والعطش مأخذاً وصادف أن مرّ أحد أعيان المنطقة هذا ما بدا على هيئته ومن العبيد المحيطين به، توقف عندما، نظر إليهما بعين المستطلع ثم قال :

- أنتم غرباء أليس كذلك ؟

- نعم نحن من أرض بابل .

- وماذا تفعلون هنا ؟

- جئنا للسكن والعيش في هذا المنطقة.

- وهل عندكم قبيلة تأوون إليها ؟

- لا ... لا نعرف أحداً .

ألتفت الرجل الطيب إلى أحد عبيده ... فجاء صاغراً ومن ثم مد عنقه لسماع ما سيقوله سيده له:

في مكان دائري يحتوي على العديد من الغرف، جلس في إحداها، وقد جاء ببعض الأكل البسيط والماء، ذهب هو وأمه في نوم عميق حتى ظهيرة اليوم الثاني، خرج من الغرفة لاستكشاف المكان كان الجو قائظاً جداً والرياح تهب بسموم معبئة بالرمال والحرارة التي تبخر رطوبة الوجه، رأى قطعان الأغنام بين ذاهبة لترعى حيث الكلأ وبعضها آتٍ إلى حيث مراحها، كانت الحياة في كل تداعياتها بسيطة رغم جوانبها الأخرى القاسية، فقد كان البادي على المدينة السكون كأنها مدينة منفية وسط جبال تحيط بأغلب جوانبها .

دخل إلى سوق المدينة الكبير، لم تكن معالم الخير والغنى بادية عليه، فقد كان المتداول فيها هو بعض أنواع الأقمشة والتمور وأواني فخارية وما شابهها، مثل ما رأى مجاميع العبيد تساق إلى حيث يباعون ويشترون مثل قطعان الأغنام والإبل، لم يكن للتعب أن يخرج من جسده نظير نوم يومٍ واحد، فجلس على صخرة في أحد أركان السوق يتطلع إلى أحوالها، ويستريح من تعب الأيام التي عانى فيها الكثير مع أمه ...

بعد أن رجع إلى أمه وجد بعض الغرباء عندها من الذين جاءوا إلى هذه المدينة مثلهم، تداولوا الحديث حول المناطق التي نزحوا منها، وصولاً إلى نوع العمل الذي يمكن للشخص أن يعمل فيه، قال أحدهم :

- الأعمال في هذه المدينة محدودة جداً، فأما أن ترعى بالماشية وسط الصحراء وتعود بها عند المساء، أو أن تذهب في تجارتهم كحارس لها، أو أن تكون عبداً عند أحدهم، غير ذلك لا يمكن لأي غريب أن يعيش في هذه المدينة دون قبيلة تحميه .

قال الآخر :

- يمكن لك أن تتزوج من أحداهن، ويكون لك في هذه الحالة قبيلة يمكن أن تدافع عنك وقت الخطر .

قال آخر :

- أنا هنا منذ ثلاثة أشهر، وقد عرفت أن هذه المدينة تعيش على الوفود التي تحج إليها لعبادة آلهتها الموجودة في مركز المدينة، فيأتون محملين بالبضائع ليبيعوها هنا أو يقايضونها ببضاعة بديلة، عندها ستعج المدينة بالحركة والرزق، وبعدها يذهب وجهاء المدينة وبعد أن يجمعوا البضاعة الجيدة أو من يريد من أصحابها أن يلتحق بالقافلة مع بضاعته فيتوجهون إلى اليمن والشام في رحلتين على مدار السنة ... هذا ما سمعته من أحدهم ... لتعود القافلة محملة بالخير والأرباح .

قال حمورا :

- ولكني وجدت في أقصى المدينة بئر ماء ينزح إليها الأهالي، لشرب الماء وأخذ البعض منه إلى بيوتهم، ويمكن لنا أن نشتغل فيه، أو إيصال الماء إلى تلك البيوت مقابل حفنة تمر أو رغيف خبز أو أجر زهيد ؟

هكذا كان الغرباء ينفذون من ثقب الإبرة من أجل رغيف الخبز وحفنة تمر، لديمومة الأجساد المتهالكة، وهم بين عبيد مسحوقين، أو رعاة منفيين خارج المدينة طول اليوم ...أستطاع حمورا أن يجد له عملاً من خلال اشتغاله في نقل الماء إلى بيوت مريديه مقابل ديمومة بقائه على قيد الحياة، مثلما استطاع أن يدخل تحت حلف لبعض القبائل القوية لتحميه من أشرار القوم الآخرين، أما أمه فقد استطاعت أن تعمل في أحد بيوت وجهاء المدينة ...

هكذا بدأت الحياة ترتب نفسها لهم، وأستطاع حمورا بعد مرور أكثر من سنة من أن يبني له دارا ً بسيطة جداً في أطراف المدينة، وأن يقتني معزتين وثلاثة شياه، لكنه ظل مواظباً على إيصال الماء إلى مريديه، وقد أيقن أهمية هذا البئر وما بمائه من الوقع الكبير في نفوس الحجاج الغرباء الذين يقطعون آلاف الأميال من أجل العبادة وأداء مناسك الحج وأخذ بعض قلل الماء تبركاً .

شارك أهالي المدينة في الدفاع عنها وصد الغزوات المتناوبة عليها، وقد أثبت جدارة في المقاومة، فهو أبن هرقل المنحدر من أصول قد شربت من واحة الماء الذهبية، مثلما شارك في بعض الغزوات التي أعدتها المدينة على المدن والقبائل الأخرى، وقد حصد جزءاً من الغنائم التي حصلوا عليها ... لقد أصبح معروفاً بالمدينة رغم أنه من أصول غير معروفة، وهذا

مهم جداً لهم، وحظي بالاحترام والتقدير من قبل بعض الوجهاء والأعيان .

كل ذلك شجعه على التقدم إلى إحدى الأرامل من اللائي سقط أزواجهن في تلك الغزوات والحروب، بعد أن عرف أصلها ونسبها وإنها من القبائل المؤثرة في القرار الذي يحدد مصير المدينة المقدسة، وكانت لها تجارة كبيرة في الرحلتين التي يعدان لها طول العام وقطعان كبيرة من الماشية والإبل ... لقد أصبح لهذا الرجل بعد تلك الزيجة نفوذ يستطيع من خلاله أن يكون مشارك في القرارات التي تصدرها المدينة ...

بدأ يتناسل منها وصادف أن زوجته شابة وقد رضعت حليب الناقة عندما تلد أول بطن ويدعى بالـــ(الصمغ) وهو من ذلك النسل العريق، فكانت زوجته عند الإنجاب تأتي بتوأم بنين، وفي البطن الثانية توأم بنات حتى إذا ما مر عقد أصبح لحمورا أكثر من عشرة أبناء ... وهو في كل مرة يذبح كبشاً قرباناً ، ليبعد عن أولاده اللعنة والحسد حتى أصبحت سنّة عند أهل المدينة، فأصبح له الآن عزوة من الأبناء، إضافة إلى مال زوجته الذي أستطاع أن يضاعفه عدة مرات، أما أمه فقد أصبح لها عبيد وجوارٍ قائمون على خدمتها، مثلما أصبح لها الآن مجالس تقصدها النساء للمسامرة وقراءة الشعر وتداول أمور المدينة .

بدأ يرأس القوافل خاصته وبعض ممن يرسل بضاعته معه إلى اليمن والشام وبدأ يعقد الصفقات والعلاقات مع تجار تلك

البلدان، ويعود مكللاً بالأرباح والبضاعة البديلة، في أحد المرات فكر أن يسافر بتجارته إلى أرض الكنانة فهي أرض بكر بالنسبة لهم ولم يطأ أرضها أحدّ من تجار المدينة، مثلما لم يعرف هو أو غيره ما نوع البضاعة التي يمكن أن يتاجروا بها معهم، أو التي ممكن أن يأتوا بها معهم ... ولكنه سمع وعرف من بعض التجار البربر والقبط الذين كانوا يأتون بتجارتهم من تلك المناطق أنها أرض زراعية كبيرة تفتقر إلى الماشية ومنتجاتها، ففكر أن يعود مع أحدهم اليها بعد أن يقضي تجارته هنا .

(ضربت صاعقة قوية عمود الشراع فأرداه حريقاً في وسط القارب الكبير الذي كان يقل حمورا وتجارته من الماشية والصوف والبضائع الأخرى، فبقي القارب دون شراع يوجهه، فهامَ في وسط البحار ريحاً تذهب به الى الشمال وأخرى تذهب به الجنوب، فما كان من حمورا إلا أن أخرج أحد الآلهة من أكياسه وظل يتضرع له، أما الآخرين فسجدوا إلى قاع القارب الكبير يتضرعون إلى الإله (ادد) فتفاجأ حمورا بذلك لأن هذا الإله قد عرفه في بابل فكيف أتى به الى أفريقيا ... بعد قليل هدأ الجو وسكن الرعد ورجعت العواصف والأمطار إلى أوكارها صاغرةً ...

سكن القارب في وسط البحار واختفت الغيوم كأنها لحظة غضب عابرة ... أطل حمورا من على القارب وقد ظهرت الشمس جلية في كبد السماء ... أجال بنظره إلى حيث ما أستطاع البصر الوصول إليه حتى تنقطع الرؤيا ... لم يجد شيئاً يمكن أن يستقر عليه بصره، ظلوا هكذا في عرض البحر ثلاثة أيام حتى

هلكت الماشية والبضائع الأخرى ... وتهالكوا جميعاً فيه حتى أضحوا جثث هامدة في وسط البحر)

فزعت أم حمورا من فراشها على هذا الحلم والعرق يتصبب من كل أجزاء جسدها كأنها قد خرجت من بركة ماء تواً ... حمورا حمورا أبني العزيز أين أنت، ذعر من كان في البيت من أحفاد ... جاء حمورا مهرولاً اتجاه أمه يتفقدها ومثله زوجته ... انحنت على يده تقبلها وترجوه أن يغض النظر عن سفره إلى أرض الكنانة ... قصت له الحلم الذي حلمت به والمهالك التي تنتظره إذا أصر على ذلك .

بلغ حمورا من العمر الآن العقد الرابع وقد نضج جسده وتربع وكمل عقله، ولكن سفره إلى أرض الكنانة لم يكن ليفارق خياله، وفي الوقت نفسه لم يستطع أن يخالف أمر أمه حتى أعلنت وفاتها، فحزن حزناً شديداً عليها، وقرر أن يعيد مشروعه القديم وهو السفر من جديد ولكن هذه المرة عن طريق البر .

بقيت زوجة حمورا حزينة لم يلامس النوم جفنيها ما دام حمورا يجهز لقافلة ضخمة تجتاز الصحراء وتعبر المدن وصولاً إلى أرض الكنانة ... أجتمع ببعض أولاده من الذين بلغوا أكثر من عقد وأوصاهم خيراً بأمهم ... ثم التفت إلى أبنه البكر هرقل الأول وأوصاه بأن يحافظ على أسم جده الأول وأن يزرع في أصلابه هذه الاسم وأن يوصي أولاده أن لم يعد هو بأن يحملوا هذا الاسم ما حيوا ؟

وقفت الزوجة وأبناؤها على غير عادتهم وعيونهم غرقى بالدموع، ووجوههم معفرة بالحزن والغم، تحركت القافلة، ونهضت الإبل من الأرض وكأنها عاصفة تقتلع كل ما يصادفها من على الأرض وبدأت تسير غرباً آخذةً معها أمان الزوجة وأبناءها، بدأت الرؤيا تنقص كأنها عين شمس آخذة بالمغيب حتى لم يبق منها سوى بعض رذاذ التراب المتناثر هنا وهناك من القافلة الكبيرة والذي تناثر على وجه الزوجة وأبناءها كأنه رذاذ الماء في يوم قائظ .

ألقت الجمال برحالها بعد يوم شاق، وقد جعلت بشكل دائري حتى يتجنب أصحابها أي طارئ من الحيوانات البرية المفترسة وكذلك بعض الأفاعي والعقارب التي ترتع في هذه الصحراء المقفرة، في صباح اليوم التالي وبعد أن بدأت خطوط الشمس الأولى تسجل ألوانها على الرمال الذهبية وبعض التلال

الصغيرة، مثلما بدأت بعض النباتات تغلق مساماتها التي فتحتها بالليل تحسباً لأي رطوبة ممكنة وكذلك لتفريغ الحرارة التي سعرت بها طول النهارات المنصرمة .

نهض الدليل أولاً ثم تبعته القافلة بعد ذلك، وبدأت القافلة تأخذ شكل السهم المستقيم الواحد تلو الآخر، وبدأت رياح الصحراء تعصف بهم، وهم يحاولون جاهدين السيطرة على الجمال الهائجة من قوة الرياح المصحوبة ببعض الرمال ونبات الشوك الذي تقتلعه من جذوره والذي يرتطم بوجهها، عقلوا أرجلها بعد أن أناخوها على الأرض بانتظار أن تسكن الرياح ليعاودوا رحلتهم من جديد ... سكنت الشمس منتصف السماء وسكنت الرياح وعادت الرمال إلى سكينتها .

لم تستطع القافلة المسير من جديد بعد أن تخلل حمل الجمال وأصاب القافلة نوعاً من الرعب ... عند العصر بدأت القافلة تتحرك من جديد وقد أصبحت الشمس أقل قسوة مما كانت عليه في الظهيرة مثلما أضحت الرياح أكثر مسالمة والرمال أقل هجوماً على العيون...

وصلوا إلى أحدى عيون الماء لتسريح جمالهم، وأمن أهل القافلة من الخطر الذي كاد أن يودي بتجارتهم إلى الضياع والهلاك في وسط الصحراء، نصبوا بعض الخيام القريبة من عين الماء بعد أن أحاطوا قافلتهم من كل جانب ... جلس بعض الحراس عند حافة العين وقد توسط القمر كبد السماء بعد أن

أحاطته النجوم ... وقد كشف بنوره كل الصحراء حتى أضحت وكأنها على مرمى نظر لكل متلصص أو غريب ... بدأ بعض عواء الذئاب يسمع من قريب فهاجت بعض الأغنام في مرابطها ... أخذ الحراس الحيطة بعد أن امتشقوا سيوفهم من أغمادها، وأحاطوا قطيع الأغنام من كل مقبل ... أما الباقون فكانوا في النوم هانئين بعد أن أرهقهم التعب جرّاء ذلك اليوم العاصف.

عادت الشمس من جديد تنشر خيوطها على البسيطة لتوقظ النائم بحرارتها، وتوجهت القافلة إلى مبتغاها حتى وصلت إلى بلاد الشام، وأناخت رحالها بعد رحلة شاقة قطعت فيها الصحراء على مضض .

كان حمورا في رحلاته الأولى إلى بلاد الشام قد تزوج من ابنة أحد التجار وأنجب منها البنين، وكان ابنه البكر يحمل أسم هرقل أيضاً، لكنه أخفى على زوجته في بكه ذلك ولم يخفه على زوجته التي في بلاد الشام، بعد مرور أكثر من شهرين وبعد أن عاد من أتى معه إلى دياره أستقر حمورا مع عائلته على أمل أن يجهز التجارة الكبيرة ويسافر إلى حيث توجد أرض الكنانة، حتى ألم به مرض أقعده عن ذلك مثلما قطعت أخباره على أهله في بكه .

كانت بلاد الشام أرض يطيب العيش فيها فهي بلاد الزيتون والخير يحيطها البحر من على طولها الشمالي والغربي وأهلها متسامحون وأقل جدلاً من الأقوام الأخرى، نشأ أبنه هرقل على سر أبيه يحب التجارة والمغامرة، ففتح متجراً كبيراً للبيع والشراء، وبد أسمه يتردد بين التجار وهو يواظب على أخذ النصائح من أبيه ويرجع إلى أبيه في كل الأمور، هكذا مرت الأمور، حتى حان زواج هرقل، فالرجال مثل فصائل الأحياء الأخرى تصل مراحل لا تستطيع العيش فرادى، فلابد من قرين يشاركهم المسيرة .

أرسل حمورا يطلب أولاده فأتوا وجلسوا حوله مع زوجته كأنهم فسائل صغيرة تستظل بظل نخلة باسقة، بدأ يروي لهم حمورا حكايته وأصله العظيم من ذلك الأب (هرقل) الذي نزح من سهول ومنخفضات سومر، حين نفيّ إلى أرض بابل وصولاً بلاد

الشام، اطمأن بال أولاده على تاريخهم، أنهم من سلالة نبيلة، ولكن القدر ولعنة الآلهة لم ترحل عنهم حتى توقع بهم الهزائم مرةً عن طريق المرض ومرة عن طريق الآلهة وغيرها من الأسباب ... ثم دنا منه أبنه الأكبر هرقل بعد أن أومأ إليه بعينه وأوصاه بمجموعة من الأسرار .

ظلت وصايا حمورا عالقة في ذهن هرقل وهو يشق طريقه في الحياة فينذر النذور للآلهة، ومثلها عندما تلد زوجته، يقدم لها الهدايا مصحوبة ببعض الأغنام، وفي أحد المرات عندما أراد هرقل أن يحج إلى بكه مع أخوته وأولاده وأمه، وقد أعد تجارة كبيرة لذلك، كان يقصد من ورائها تنفيذ الوصية الأولى من وصايا والده، حتى إذا ما وصل إلى بكه وباع تجارته، ظل يسأل عن أخوته من زوجة أبيه حتى التقى بهم، وأجتمع بهم وأعاد الوصل بين العائلتين، بعد انقطاع لم يعرف به أحدٌ .

الوصية الثانية التي أرادها الأب من حمورا أن يذهب بتجارة إلى أرض الكنانة والنوبة، وبالفعل أستطاع وبعد أن جهز لها أن يسافر بقافلة ضخمة (لها أول ولكن ليس لها من آخر) بعد أن أراد أغلب تجار المنطقة المشاركة معه فيها لما عرفوا عنه من عقل نير وحرص كبير ممكن أن تعود عليهم تلك التجارة بربحٍ وفير .

الابن الذي يلي هرقل هو (سين) وهذه الوصية الثالثة التي أوصى بها الأب لأبنه وهي أن يسمى أبناءه على أسماء الآلهة كما

فعل هو وسمي أبناءه على أسماء الآلهة فكان أسم أبنه الثالث هو (ننورتا) وأسماء بناته الاثنتين هما (نصابا)، و(سموقان) ، ليبعد عنهم اللعنة التي ظلت تلاحقه من قبل آبائه .

بعد أكثر من ثلاثة شهور عادت القافلة محملة بالبضائع من شتى الأنواع، بعد أن باعت بضاعتها وجنت أرباحاً كبيرة ... وأصبح بيت هرقل مزارا ً لكل التجار من الذين أرسلوا تجارتهم معه والذين لم يرسلوا ... هكذا تتداول الأيام ليصبح هرقل شيخ التجار بعد تلك القافلة الكبيرة والتي ستصبح في السنين المقبلة تقليد لتجار آخرين يذهبون بتجارتهم إلى أرض الكنانة .

أجتمعِ هرقل مع أخوته وقص عليهم كيف أن تلك البلاد، أكثر تطورا ً وحضارة منهم، فقد رأى جبال اصطناعية يطلق عليها (الأهرامات) وهي بيوت الموتى لكبار آلهتهم وملوكها، مثلما رأى بعض التلال الصغيرة (أهرامات صغيرة) لأشرافهم، لقد كانت بلادهم مزدهرة بالعمل وعندهم نهر كبير يدعى (نهر النيل) وهم يقدسونه جداً لأنه مانح الحياة لهم، أما بنائهم فقد كان من الصخر، الذي لا يتساقط جراء هبوب الرياح القوية أو بالتقادم، أما الآلهة عندهم فمثلها هي متعددة ولكن في أغلبهم يرجعون إلى الإله (آمون) الذي زرته أنا وقدمت له النذور، ثم اتجهت نحو أعالي نهر النيل حيث بلاد النوبة والرجال الأكثر سمرة، حيث السحر يزدهر عندهم، فوجدت من العجب عندهم ما يسقط الطير من السماء، ويفيض النهر، ويقطع الأرحام، فذهبت عند أحد النساء لأستطلع حظنا من الحياة فقالت :

- إن جدكم الكبير قد قتل طيراً كبيراً نصفه إله ونصفه عادي فحلت اللعنة في نسله وعلى الأرض التي قتل فيها ذلك الكائن .

- وما العمل من أجل رفع اللعنة عنا نحن أحفاده ؟

- تذهب إلى أرض الحبشة وتجمع خمسة طيور كبيرة، وخمس أثواب لأفاعي تسكن نفس المنطقة، وتعود بها إلى أرض أجدادك وتقدمها لكبير الآلهة عندهم، ولكن احذر طائر الــ(زو) عندها ستذهب لعنة الطير عنكم .

قالت نصابا :

- لقد لاحظت بعض الأقفاص الكبير في الباحة الخلفية من الدار ... أعتقد أنها الطيور المقصودة ... أليس كذلك .

- نعم أنها الطيور التي يجب أن تقدم كنذور إلى مجمع الآلهة (أنوناكي) في الوركاء، مع أثواب الأفاعي .

قالت سموقان:

- ولكن قبل أن ترحل ... من سيدير الأعمال من بعدك وهذه التجارة الضخمة التي خلفتها بعدك .

- أن أخويّ سين وننورتا هما من سيقودان العمل، أما أنا فلن أتأخر في بلاد جدي كثيراً ... بمجرد إيفاء النذر ورفع اللعنة عنا سأعود إليكم بأسرع وقت .

بينما العائلة تتداول موضوع رحيل الأخ الأكبر عنهم، أصاب الأم مرض خطير جعلها قعيدة الفراش، فتأجل مشروع الرحيل إلى حين شفائها، في هذه الأثناء حلت فرقة مسرحية من دولة الإغريق على بلاد الشام تقدم بعض الأعمال التي فيها العبر، وتخلص الناس من أحقادها، وكذلك تسعدهم، حضر وجهاء المدينة وكذلك هرقل وأخوته لرؤية الأعمال التي تقدمها الفرقة ، فأفرز لهم مكان تقدم الجميع ... كانت أغلب الأعمال تدور حول دور الآلهة في إنزال الغضب واللعنة على كل عاص وناكر لدورهم في الحياة، وما الإنسان إلا كائن بسيط لا حول له ولا قوة إلا بأمر الآلهة ... من خلف الستار كان مشرف العمل ومساعده يلاحظان الجمهور الآتي وخاصة المقاعد الأمامية ، وصادف أن لاحظا نصابا وسيموقان، وقد كانتا روعة في الجمال .

كانت العروض متوالية يوماً بعد يوم، وكانت الفتاتان تحضران تلك العروض باستمرار، وصادف أن لاحظا الاهتمام المباشر والانجذاب الكبير من شخصين يقفان خلف ستار المسرح، لم يطل تبادل الاحترام بينهما، حتى تقدما للزواج منهما، لم تكن شروط الزواج بالتعجيزية كما أن أولئك الذين يقومون بتلك الأعمال التي تقدم أمام الملك وأعيان المدينة يحظون باهتمام كبير، فتمت أركان الزواج لتبقى الليلة الأخيرة تتم في بلدهم الإغريق بعد أن يباركهما المعبد .

بدأت نسائم الصيف تطوف حول بلاد الشام بعد أن أتم الربيع فصله وقد أزداد منسوب المياه في الأنهار، وخرجت الأحياء من سباتها وبدأت العصافير تبحث عن قشة هنا أو جزء من ورقة يابسة قد تهادت من شجرة إلى الأرض تتلقفها، بدأ العنكبوت ينسج شباكه من جديد، وهكذا بدأت الحياة تدب في المدينة وريفها كما تدب في الصحراء وواحاتها، مثلما بدأت بعض طلائع القوافل المتجهة من بكه إلى بلاد الشام بالظهور الواحدة تلو الأخرى ... أعاد هرقل علاقاته مع التجار القادمين، وقرر أن يعود معهم إلى ديارهم ومن هناك يذهب إلى بلاد بابل وسومر ليوفي النذر الذي في رقبته ويرفع اللعنة التي توارثها عن أجداده وهذه هي الوصية الخامسة التي لم يخبر بها أحد .

عادت الفرقة المسرحية إلى بلادها بعد أن طافت بلاد الشام وضواحيها لأكثر من شهرين مصطحبة معها العروسين، وكان قبل ذلك قد رحل هرقل بعد أن أعد تجارة كبيرة مع أصحابه إلى بكه، وخلا الدار إلا من سين وننورتا والأم العليلة، أما زوجته وأولادها فقد أفرد لهم هرقل داراً منفردة وأوصى أخوته بهم خيرا .

بدأ سين يبحث عن زوجة تساعده على الحياة ويقيم معها أسرة فأشارت أمه عليه أن يتزوج من ابنة خالته إلا أنه رفض، وهذه هي الوصية الرابعة التي أسر بها هرقل أخاه بأن لا يتزوج من أقاربه مهما كانت الأسباب، لم تكن أي من النساء التي يراها في الأسواق أو من التي يسمع عنها تروق له، فترك الأمر للأيام عسى أن يحظى بإحداهن تكون له خير عون في حياته المستقبلية .

أما ننورتا فكان يعشق الجيش وقد تدرج فيه منذ أن أصبح فتى، وأستطاع دخول البلاط ليكون من المقربين منه، فأشار على أخيه بأن يتزوج من بنات أحد كبار الجيش ليكون له سند في الحياة، ويساعده في تجارته، خاصةً أنه أراد أن يتوسع في مجال الأراضي الزراعية .

كان ننورتا على علم باللعنة التي ترافق عائلته، لذلك رفض كل الأعمال التجارية مثلما رفض أن يستمر في الجيش رغم تقدمه فيه وقد أصبح له شأن كبير، مثلما رفض الزواج ... أراد السفر مرة أخرى إلى أرض الكنانة، خاصة بعد أن رأى أخاه الكبير في سفرته السابقة وقد عاد بتجارة كبيرة وأصبح زعيم التجار في حينها، ورغم أنه ليس لديه الميول الكافية للتجارة إلا أنه يريد المبرر الكافي الذي يمنحه العذر للانسحاب من الجيش ومغادرة المدينة .

أصطحب ننورتا بعض الرجالات من الذين سافروا مع أخيه، مثلما أخذ معه تجارة كبيرة، وأصطحب معه تجاراً كباراً بتجارتهم، ثم ودع أمه العليلة وأخاه سين على أمل أن يرجع يوماً، بدأت القافلة تسير باتجاه أرض الكنانة قاطعة صحراء سيناء الكبرى وصولاً إلى طيبة، مركز التجارة والعبادة في أرض الكنانة .

أما سين فقد أستقدم أولاد أخيه هرقل إلى العمل في تجارته بعد أن خلى عليه المكان، وأصبح الغرباء يحيطون به من كل جانب، ورغم صغر سنهم إلا أنهم أثبتوا جدارة كبيرة في الحفاظ على مالهم وتجارة عمهم، وقد تناوبوا العمل فيما بينهم وتحت رعاية عمهم سين .

أستوطن ننورتا في أرض طيبة وأستطاع من خلال تجارته أن يكون له بعض المال الكافي الذي يدير به أموره، لقد اعجبه المكان فقد وجد المعابد الضخمة في تصميمها وشكلها مثلما وجد الأراضي الزراعية الشاسعة على طول نهر النيل، وكذلك البشر الذين ينحدرون من كل بقاع العالم إليها، أشترى له متجراً كبيراً في وسط المدينة، مثلما أشترى له داراً كبيرة وبدأ البحث عن زوجة يؤسس معها عائلة جديدة، لأنه كره العودة الى دياره بعد أن وجد الراحة النفسية في هذه الأرض المنبسطة في كل شيء .

أستأجر بعض العاملين ليساعدوه في إدارة أموره، وقرب أحد العمال من السكان الأصليين في المدينة ليعرف أسرارها، إذ أن طموحه هو الوصول إلى البلاط الملكي ولم يزل يلح عليه، حتى عرف من خلال هذا الرجل أن سر البلاط الملكي يكمن عن طريق المعبد وخدمته، وبالتالي يجب أن يتقرب زلفى لهم حتى يقربوه بدورهم إلى البلاط الملكي .

أشيع موت الملك الإله فعم الحزن المدينة مثلما عم الخوف من غضب الآلهة فبدأت النذور تقدم إلى المعابد، فكان ننورتا سباق في كل ذلك حتى أستطاع أن يبرز بين كل المتقدمين بالنذور والهدايا إلى المعبد ... ورث أبن الملك الحكم وأعدت مراسيم فخمة لهذا التتويج .

وفي أحد المرات أشار عليه أحد خدام المعبد الكبير بأن يتزوج زوجة أحد القادة من الذين لم يعودوا من أرض المعركة، فقد كانت هذه الزوجة تحظى برعاية خاصة لما قدمه زوجها من تضحيات في خدمة المعبد والملك الإله، وكان هذا الراهب قد رتّب موعداً حتى يرى ننورتا من بعيد، وظل يخبره بالمواعيد التي تحضر فيها إلى المعبد، وبالمقابل كان يحظى بمال وفير منه وقد لاحظت الزوجة وجود ننورتا المتكرر في أوقات حضورها إلى المعبد فبدأ بعض الإعجاب نحوه أما هو فقد أغرم بها ولكنه أنتظر الوقت المناسب ليفاتحها بموضوع الزواج .

في أحد المرات لمح ننورتا وفداً كبيراً من الخدم يحمل سيداً على أكتافه، لكنه لم يعر أهمية لذلك، دخل الـــ(سيد) فزعاً من خارج المتجر صوب ننورتا، وأخبره بحضور (محبوبة) إلى السوق لشراء بعض الحاجيات الخاصة بالنساء، فما كان منه إلا أن هب من مكانه صوبها إلى حيث هي واقفة تتبضع فقدم نفسه لها، وعرض عليها خدماته وطلب منها أن تدخل متجره عسى أن تجد ما يرضيها فيه، لم تكن محبوبة تجهل ما يبغيه الرجل، فذهبت معه إلى حيث متجره .

أنتقل ننورتا مع زوجته محبوبة إلى سكنهما الجديد في بيتهما ضمن بيوت رعية الملك الإله، وبعد مرور فترة ليست بالكبيرة أصبح مسؤول أمن القصر، بعد التزكيات التي حصل عليها من قبل أصحاب المعبد، وعلاقات زوجته، وكذلك خبرته السابقة في الجيش، وطموحه المتقد الذي يستعر في داخله .

اشتهرت بعض رجالات مصر في ذلك الوقت بالسحر، وكانوا مقربين من الحاكم وحاشيته، في الوقت نفسه لم يرق للبعض المكانة التي حظي بها ننورتا في وقت قصير، فبدأوا يحوكون الدسائس له، في أحد المرات وفي احتفال كبير في حضرة الملك حضرت مجموعة من السحرة لتقديم عروضهم السحرية، وقد دبروا أمراً مع بعض من حاشية الملك، وبعد أن اجتمعوا في الباحة المقابلة للملك والجموع من حاشية الملك ونسائِهم مجتمعين وجالسين على الكراسي المخصصة لهم، أشعلوا البخور وبدأت تتقر الأصابع على الدفوف بصوت منخفض ليبدأ تصاعدياً حتى يخلق جو من الرهبة مصحوباً بعزف على بعض الآلات الموسيقية كالناي وما شابهه، فتح كبيرهم أناءً كبيراً كان يحمله بيده فخرجت منها مجموعة من العقارب الصفر والسود، تناثرت في الرقعة المخصصة لها، ترفع إبرة السم إلى الأعلى معلنة الحرب والجوع على كل من يقترب منها، أخذ كبيرهم، العقرب الأسود المميز بينها بيده قربه إلى وجهه قرأ عليه بصوت منخفض بعض الكلمات ثم بصق عليه من فيه بعض لعابه، ووضعه على يده، مسك الآخر وأقام عليه نفس الطقوس ووضعه على رقبته وهكذا الآخر والآخر حتى علقت العقارب على جسده، وأصبح شكله مرعب، كأنه رجل العقارب، ومثله فعل الآخر ولكن بالأفاعي التي بدأت تلتف حول عنقه ورجله وباقي أجزاء جسده، فلم يكن من الحاضرين إلا أن أصابتهم الرهبة والتعجب رغم علمهم بأنهم سحرة .

نفض كلّ منهم ما وضعه عليه من عقارب وأفاعي، ليقوموا بالفقرة الثانية وهي قراءة الطالع فرمى كبير السحرة ببعض الأحجار الكريمة الغريبة بشكلها على الأرض وجمعها من جديد، أعاد الكرة مرةً ثانية لكنه كان يقرأ الأحجار بشكل صحيح وقد تبين له من خلالها إن للرجل المقصود شأن كبير في المستقبل، فأومأ لأصحابه برأسه فاجتمعوا معاً أمام الجميع ولكن بصوت منخفض أخبرهم أن الودع يقول إن الرجل المقصود سيصبح له شأن كبير وبالتالي مهما حاولنا أن نوقع به أمام الملك فلن نفلح، لكن الآخرين أصروا على ما اتفقوا عليه، ونفد صبر بعض من حاشية الملك ممن اتفقوا مع السحرة على الإيقاع بننورتا، وبدأ الجزع يتضح على تصرفاتهم، لكن المانع الحقيقي والذي يحمي ننورتا من أي عمل سحري كونه في الأصل يحمل اللعنة التي توارثها عن أجداده، ولذلك لا يمكن أن تحل عليه لعنة جديدة من الآخرين .

أخبروا مسؤول الحفل أن الفقرة الأخيرة لابد أن تكون على أحد أفراد القصر، وقد وقع الاختيار على مسؤول القصر ننورتا، فما كان منه إلا أن أخبره بذلك فتقدم إلى وسط الباحة المكشوفة بالقرب من كبير السحرة وأتباعه، فجاءه أحدهم بسلة فيها عقارب يبلغ أصغرهم (١٠سم) وفتحها في المساحة المخصصة لها وطلب منه أن يمسكها الواحد تلو الآخر ويضعها على جسده ... أصاب الحاضرين نوع من الوجوم الذي بان على وجوههم، وخاصة زوجته التي لم تستطع إكمال الحفل فاستأذنت من الملكة

ورجعت إلى غرفة الضيوف باكية منهارة وقد أدركت إن كل ذلك هو تدبير لقتل زوجها، أما الملك فلم يستطع ردع السحرة عما يرومون فعله فهم من يبعدون الشرور التي ممكن أن تصيب الملك أو اللعنة التي تنزل على البلاد بمساعدة الكهنة على ذلك ... أما ننورتا وبالرغم من أنه لم يفعل ذلك أبداً إلا أنه كان متيقن من عدم إصابته بأي ضرر من تلك العقارب مهما كان السم الذي تحمله .

مسك أول عقرب ووضعه على يده، حاول أن يغرز أبرته فيها إلا أنه تهاوى على الأرض، مسك الثاني والثالث إلا أنها كانت تتهاوى دون أن تصيبه بأي أذى، ورغم أن كبير الكهنة كان قد عرف من خلال الطالع ذلك، إلا إن المفاجأة كانت قد عمت الجميع ومنهم صغار السحرة وبعض الكهنة الموجودين، إضافة إلى الملك وحاشيته، ثم وصل الخبر إلى زوجته فعادت مسرعة إلى مسرح الحفل والابتسامة على وجهها .

الفقرة الأخيرة من الحفل، خاصة باصطياد أفعى الأصلة (الأنكوندا) وهي أفعى طول البالغ منها ما بين (٥- ٧) متر وبعرض ما يؤهلها لابتلاع إنسان بأكمله، فهي تفتقر إلى سمة السم ولكنها تتميز بضخامتها، والقوة التي من خلالها تستطيع مسك الفريسة ومن ثم الالتفاف حوله حتى تخنقه أولاً ومن ثم تكسر أضلاعه جميعاً وبعدها تبتلعه، فخرج الملك وحاشيته إلى حديقة القصر التي قد أعدت سابقاً لهذا الغرض، ثم بدأ العرض ورؤوس الأصابع تنقر على الرقع والدفوف وعطور البخور تملأ المكان

والجو مشحون بالخوف والرهبة بعد أن استعدت حاشية الملك لأي طائر خارج عن السيطرة من قبل (الأنكوندا) .

بدأ أحد الصيادين المهرة بطلاء قدمه بالدهن، والتي تمتاز بخلوها من الشعر، ومن ثم حد خنجر حتى بانت نهايته ومن خلال الأضواء المحيطة بالحديقة كأنها قطعة ماس تعكس الضوء، ثم جلس الصياد في وسط الحديقة وأفرج رجليه باتجاهين مختلفين، وبدأ يلعب أصبعه الكبير من رجله اليسرى كأنه حيوان صغير، ووضع يده اليمنى التي تمسك الخنجر في نهاية فخذه وبالقرب من عانته، عم المكان صمتٌ رهيب باستثناء صوت الدفوف التي تنقر عليها الأصابع، في هذا الأثناء بدأ يسمع صوت حفيف يشق الحشائش باتجاه رِجل الصياد، تقدمت الأنكوندا ونقير الدفوف يزداد والخوف يتلبس الحاضرين، عم الارتباك بين الحضور بعد أن ظهر رأس الأنكوندا ... تقدمت باتجاه الأصبع المتحرك من قَدِم الرجل الصياد، بدأت بابتلاع رجله، الخوف يسيطر على الجميع، الصمت يكاد يقتل الحاضرين، والهلع مما يشاهدوه وخاصة النساء خيم الصمت ومشاعر الخوف صعب السيطرة عليها ... وصلت الابتلاع إلى ركبته ثم إلى فخذه حتى إذا ما وصلت إلى نهايته ... تحركت يد الرجل اليمنى الماسكة بالخنجر بسرعة فشق فمها على طول رجله الذي ابتلعتها، ثم انقض عليها بضربات الخنجر ليحيلها إلى جثة هامدة وسط ذهول الملك والحاضرين .

انتهت الحفلة والخوف والذهول يعم الجميع حتى إن الفقرة الأخيرة أنست الحاضرين بما فيهم زوجة ننورتا ما يضمر بعض

حاشية الملك من حقد لزوجها، أما الملك وزوجته فقد أنساهم هذا الحفل بعض الهموم التي تحيط بالمملكة مثلما أنسى الحاضرين بعض مشاكلهم، لكن ننورتا تيقن أن هناك من يضمر له الشر ولابد له من أن يأخذ الحيطة والحذر بعد اليوم .

أصبح ننورتا المشرف الأول على بناء الهرم الخاصة بالملك، وهذه درجة لا ينالها إلا ذو حظوة كبيرة، مثلما أنجبت له زوجته الطفل الأول الذي أطلق عليه أسم عبورا، لم يكن بناء الأهرام ليتم بعقد أو أثنين ولكنه يستمر لأكثر من ذلك، حتى توطدت علاقته بالملك وأصبح لننورتا نفوذه الخاص به مثلما أصبح له مريدون وأتباع، وكذلك كبرت عائلته فقد أنجبت له زوجته فتاة جميلة لها قدرات سحرية ومن ثم ولداً صغيراً أسماه هرقل وكانت هذه الوصية الأخيرة .

بدأت رياح التغيير تلوح في الأفق تدعو إلى أن هناك إله واحد هو المسؤول عن كل شيء، وكان الأشخاص الذين يبشرون في ذلك يدعون أنفسهم أنبياء، ولما كان أمر الناس مرهون بيد الملك الإله، وفي مدن أخرى مناط بكبير الكهنة فلم يكن لأولئك الأشخاص من قدرة على نشر دينهم الجديد وقد أقتصر على بعض القرى النائية والمناطق المحدودة التي تواجدوا فيها ... أما ننورتا فلم يتعجب ذلك، فعندما كان في بلاد الشام، كانت بعض من القوافل التي تأتيهم من بكه والمناطق الأخرى، تخبرهم بأن بعض الأشخاص يدعون الى رب واحد هو خالق السموات والأرض وما بينهما، ويرفضون تلك الآلهة التي يصنعها الإنسان بيده، ولكنهم في الوقت نفسه لم يفرضوا آراءهم على الآخرين واكتفوا بما توصلوا إليه بعقلهم، وحتى عندما وصل ننورتا إلى بلاد النيل والنوبة كانت هناك بعض الأصوات التي تنادي بهذا التوجه، ولكنها ضعيفة ولم ترق إلى مستوى من الأتباع والمريدين له .

في بلاد قريبة من بلاد النيل وتدعى أورشليم القدس، ظهرت بعض التباشير من هذا التوجه الذي يدعو إلى توحيد العبادة تحت إله واحد، وكان بعض من أولئك الأشخاص قد عادوا إلى ديارهم التي قد أسروا منها، ومنهم من مات فيها ولكن أولاده عادوا إليها، وفي كلتا الحالتين كانت مثل هذه الظواهر لا تزعج الملك وحاشيته مثلما لا تزعج كبير الكهنة وأتباعه، كونه يدعو إلى

عبادة الرب الواحد، الذي بيده كل شيء والناس عرفت أن أمورهم لا يمكن أن تجتمع في إله واحد مثلما لا تجتمع بيد شخص واحد .

وهكذا بدت الأمور على وضعها دون تغيير، مثلما كبر أبناء ننورتا وأصبحت سحارة في سن الزواج والعرسان يدورون حولها، خاصةً وأنها امتلكت من الجمال فوق الأخريات، فوجهها الدائري الذي توارثته من أجدادها من الذين شربوا ماء بلد السواد وسحنتها البيضاء إضافة إلى الجاه الذي يمتلكه والداها، كلها أسباب جعلتها محط أنظار الجميع، إلا أن رئيس الكهنة لم يكن ليدع أي شخص يتقدم إليها بعد أن عرف ما لوالديها من حماية إلهيه هكذا فسر أمر الحفلة بعد أن تساقطت العقارب من على جسده، فكان ينتظر اللحظة المناسبة لمصاهرته، أما أبنه عبورا فكان أكثر ميلاً للواقع المعاش، فاستكان لهذه الحياة وتزوج من أحدى قريبات والدته، وبدأ يمارس حياته الاعتيادية، وأصبح من المقربين للملك .

أما أبنه هرقل فقد كان ناقماً على أوضاع الفقراء والمحتاجين وما آل إليه وضعهم، بمقابل ما يراه من الترف الذي يعيش فيه الملك وحاشيته ورئيس الكهنة وأتباعه، وكثيراً ما كان يثير سخطه ونقمته أمام أهله وإن مثل هذا الوضع لابد من أن يغيّر، لكن والديه كانا يعنفاه بشدة، ورغم أنه أندرج داخل الجيش وأصبحت عنده رتبة عسكرية كبيرة إلا أنه بقي على وضعه المتذمر من الوضع القائم، فما كان من والده، إلا أن طلب من

الملك أن ينقله إلى بعض المناطق البعيدة عن مركز المدينة، لكن الملك لم يكن ليستجيب لرغبته، رغم عدم معرفته بنوايا هرقل .

كانت ابنة الملك تميل إلى هرقل، بعد أن رأته أكثر من مرة في الحفلات الملكية وبعض الطقوس الدينية، ولكن لم يكن لأحد من أن يرفع نظره لها أو يحدق إليها باستثناء عبورا الذي كانت جرأته أحد مميزاته، لكنه لم يكن ليعير ذلك أهمية، حتى أرسلت خادمتها برسالة تعبر له عن إعجابها به، عند ذاك تغيرت رؤيته وأنه من الممكن أن يبدأ بالتغيير من داخل البيت الملكي، وبالفعل بادلها الإعجاب الذي تحول إلى حب، ولكن ظل طموحه يعتمل في داخله، وينتظر اللحظة المناسبة .

زفت سحارة إلى أبن كبير الكهنة، مثلما زفت ابنة الملك إلى هرقل، لقد كانت حفلة ضخمة جداً أنيرت فيها الأرض حتى وصل عدد المشاعل النارية إلى كل ركن من أركان المكان وعتق فيها الملك المئات من العبيد، مثلما تم دعوة الفقراء إلى الموائد الخلفية التي أقامها كبير الكهنة، وأقيمت فيها طقوس العبادة والاحتفال، كانت ليلة من ليالي الأحلام لم يغمض فيها جفن المدينة وأهلها .

تتوالد الأيام من رحم بعضها البعض وتتجب النساء، مثل الأرانب بطن تلو الأخرى، إلا زوجة عبورا، لم يأتها المخاض أبداً، فبدأت الإشاعات تحوم حوله، لكنه لم يرد أو يبالي لأنه يحب زوجته، أما هي فقد تيقنت أن سبب ذلك هو، وقد أشاعت هذا

الأمر بين الجميع، فما كان من والدته إلا أن عزمت على تزويجه من أخرى رغم أن زوجته ابنة أختها، ولكنها أرادت أن تنتصر لأرادته، لما عرفته من فحولة أبيه، والذي أنعكس جلياً من خلال أخيه هرقل الذي أصبح لديه الآن أربعة أبناء، أما أخته ساحورة فقد أنجبت أثنين وانتكست صحياً انتكاسه كبيرة، إذ أن من عاداتهم المتوارثة، أن المرأة بعد أن تلد بثلاثة أيام، يتم إشعال نار بسيطة داخل جفنة فخارية مخصصة لهذا الغرض ثم تترك لتهدأ النار وتتحول إلى جمر متقد مختبئ تحتها، ومن ثم توضع عليها مبخرة وقد خلط فيها أكثر من أربعين نوعاً من البخور تعبره المرأة أكثر من مرة حتى تعود إلى سابق عهدها قبل الولادة لتصبح وكأنها فتاة باكر .

إلا أن ذلك عاد عليها بالمرض الشديد، فبعد أن امتلأ جسدها بدخان البخور من أسفلها حتى قرن رأسها، وإذا بالدنيا تدور بها لتسقط على الأرض جثة هامدة، وقد عجز السحرة والأطباء من إعادتها إلى وضعها الطبيعي، ونصحوا زوجها بعدم النوم معها ما بقيت على قيد الحياة .

لم يكن من حق عبورا أن يتزوج على زوجته ما كانت على قيد الحياة، فكان لابد لهما من أن ينفصلا، فتزوج من أحدى كريمات وجهاء القصر، ولم يمض على زواجهما سنة حتى وضعت زوجته توأماً من البنين، ذلك ما سبب صدمة كبيرة لزوجته السابقة، بعد أن أصبحت نظرات من في القصر وأهلها تذبحها حتى من خادمات القصر، ما أدى بها إلى الانتحار بعد أن

رمت نفسها في النيل، ما أنعكس على العائلة وأحدث شرخاً كبيراً فيها .

لم يستقم بعد هذا الحادث وضع عائلة ننورتا بعد أن أصبحت عائلة زوجته تكنٌ له ولأولاده العداء، وبدأت تنسج لهم الدسائس، فوشوا للملك بأن زوج أبنته يريد الانقلاب عليه، وهذا ما لم يخفيه هرقل على المقربين منه، فأرسل بطلبه، ورغم أن الأخير لم يكن ليدافع عن نفسه، وينكر الجريمة المنسوبة إليه بالشكل الصحيح ما جعل الملك يؤكد ما نُقلْ إليه، ولم يشأ أن يوقع به أقصى العقوبات وهي الخيانة العظمى، وبعد التضرع الذي أبدته أبنته لديه ولدى أمها، وكذلك الحظوة التي يمتلكها أبوه عند الملك، وتدخل كبير الكهنة عند الملك، كل ذلك جعله يخفف حكم الموت عليه ويكتفي بنفيه إلى أورشليم القدس ...

بعد ثلاثة أيام من صدور حكم النفي على هرقل، تحرك مع مجموعة من الفقراء والمساكين من الذين آمنوا به سراً على وجوب تغيير وضع المملكة البائسة، كانوا قد شدوا الرحال معه ولكن في أماكن متفرقة، وعندما وصلوا إلى المكان المتفق عليه، كان عددهم يتجاوز الخمسين، وهكذا أصبحوا مجموعة من المنفيين والمتشردين يسيرون إلى منفاه عسى أن يجدوا في أورشليم القدس مبتغاهم في أرض يحكمها رجل رحيم ويسودها العدل الاجتماعي .

في أول ليلة وبعد مسيرة طويلة قطعوها في الصحراء المترامية الأطراف، كانت العزيمة تدفعهم وبإصرار كبيرة على أن ما أقدموا عليه صحيح وبالتالي يستحق التضحية، لذلك يجب أن لا تلوي عزيمتهم قسوة الصحراء، هكذا كانوا يشدون أزر بعضهم البعض، ألقوا عصا ترحالهم عند إحدى قبائل البدو، كان هرقل يفكر في ملكوت السماء، وذلك الصفاء الذي حل السماء حتى أصبحت كأنها مرآة تعكس أحلام كل الثائرين من أجل القيم النبيلة، وعندما أستند إلى الجهة اليمنى من فراشه ومال بجسده إليها، وجد أن في نهاية الأفق الممدود تلتقي السماء مع الأرض .

في صباح اليوم الثاني المفقود من تقويم الحياة، شدوا الرحال إلى حيث مستقر الشمس بعد أن أرشدهم خبير الأرض من البدو الذين قضوا الليلة عنده، حيث ما أبحروا بإقدامهم التي تضرب الأرض بعزيمة كانت الشمس بالتوازي تصعد معهم إلى كبد السماء المفتوحة، فتهاوى أحد المناصرين لهرقل على الأرض بعد إن أصيب بضربة شمس، ولم يكن هناك من مكان يستظلون بظله، هكذا بدوا كأنهم فريسة سهلة لوطأة الظروف ثم سقط الثاني، ورغم محاولتهم البائسة في حمل هذا أو ذاك إلا إن الوضع لم يكن ليساعدهم على ذلك، فتركوا خلفهم بعض التلال الصغيرة والعلامات التعريفية بأصحابها، حتى إذا ما بدأت الشمس تميل إلى القسم الشمالي من السماء، بدأ أثر بعض الظلال يظهر على الأرض من التلال المتواجدة هنا وهناك، جلسوا خلف أحد التلال

المرتفعة نسبياً عن الباقيات بشكل دائري، يملأون جوفهم ببعض الخبز والتمر وقليلاً من الماء، بعد استراحة لأكثر من ساعة شدوا الرحال مرة أخرى، حتى إذا ما بدأت بعض أصوات الحيوانات تسمع، كان الخوف قد تسرب إليهم، في هذه الأثناء وجدوا من بعيد بعض الخيام كأنها ارتفاعات طبيعية على الأرض فاتجهوا نحوها على أمل قضاء الليلة الثانية عندهم وصولاً إلى هدفهم السامي .

فوجيء الجميع عندما أخبرهم أحد البدو أن الاتجاه المقصود لمسيرتهم كان خطأً، لقد ضلوا في الصحراء دون علمهم، إذ إن للصحراء كما للسماء والمدن طرق لا يستدل عليها إلا أهلها، وليس للغريب حتى لو كان في مدينة معمورة من أن يستدل على حاجته دون المعرفة بطرقها، في صباح اليوم الثالث ذهبوا بالاتجاه الذي حدده لهم أحد أفراد القبيلة، بدؤوا المسيرة من جديد بعد أن وصل عددهم إلى النصف، لكن ما وصلوا إليه كان هو نفسه ما بدؤوه، هكذا ظلوا يدورون في الصحراء، ويتساقط الضعيف منهم الواحد تلو الآخر، لتستمر مسيرتهم إلى عشرة أيام ولم يبق منهم سوى خمسة أفراد مع هرقل .

لاحت لهم بشائر المدينة بعد أن استظلوا بقافلة متجهه إلى أورشليم القدس، وما أن وصلوا الخان الذي تستريح فيه القوافل حتى أنخرط خمستهم في غيبوبة، لم يفيقوا منها إلا بعد يومين، بدأ هرقل يجمع قواه ليستكشف المكان من حوله، ثم دخل المدينة يستقرئ الأوضاع لم تكن قدماه لتعينه على المشي في الأزقة وبين الأسواق حتى عاد أدراجه، وانكفأ على وجهه، اكتشفت إحدى

ممرضات المكان أنه قد أصيب بمرض يدعى (حمى الرأس) بدأت درجات الحرارة ترتفع في جسده، وهي تحاول أن تخفضها إلى وضعها الطبيعي، وبين صراع داخل جسده أستمر ثلاثة أيام جديدة، أستطاع هرقل أن يسترد عافيته قليلاً .

استردوا كامل صحتهم بعد شهر تقريباً من تواجدهم في الخان، وأصبح لزاماً عليهم أن يغادروه إلى أي مكان يشاءون، ساحوا في الأسواق يبحثون عن العمل ومكان يبيتون فيه، هكذا تحولت طموحاتهم من أحلام وردية إلى واقع مرير لا يتعدى عمل بسيط يسد رمقهم، ومكان يسكنون فيه بدل الأسواق التي يتسكعون فيها، فما كان منهم إلا أن افترقوا في وسط المدينة، بعد أن وجدوا أنفسهم ضمن جموع مشكلة يصعب عليهم ولكن فرادى يمكن أن يتدبر كل منهم أمر نفسه.

اشتغل هرقل عامل ينقل الصخر لبناء المساكن، ويبيت في بعض الأحيان في نفس المكان الذي لم يكتمل بناؤه، بدأت ملامحه تتغير، طال شعر رأسه حتى تدلى على كتفيه مثلما طالت لحيته حتى أصبح كهيئة أصحاب الكهف في تحمله لألم العمل وقسوته، وخشنت يداه بعد أن فارقها الترف، تصحرت معدته بعد أكثر من ستة أشهر لم تلامس سوى الخبز والتمر وبعض اللبن .

في أغلب الأحيان كان يستغل فترة بقائه في موقع العمل وحيداً ليذهب إلى وسط المدينة يستطلعها، ومن ثم يعرج إلى المكان المقدس يتطلع فيه، عرف من المحيطين به من العمال من

أصحاب المدينة أن فيها ملكاً يحكم بالعدل وإن له قدرة أن يكلم الطير، ويفلق الحجر، وعنده مشروع كبير يروم الإقدام عليه هو بناء برج كبير في وسط المدينة .

تفتقر المدينة إلى الأنهر التي تسقي الأراضي الزراعية لذلك كانت تعتمد في سقيها على الآبار وكذلك في شربها للماء، وهذا ما شكل له في بداية الأمر العسر في معدته، ولكنه بعد فترة أعتاد على ذلك، ومن ثم عرف إن المدينة تشتهر بزراعة الزيتون، والذي يعد العمود الفقري لأهالي المدينة، والذي يعملون منه عصير الزيت وزيت الزيتون، وكذلك يعملون برعي الأغنام وبالتالي فهي من المدن الفقيرة، ولكنها تشتهر بالجدال العقيم عن أي شيء وفي كل شيء .

من عادات رئيس العمال الذي يشتغل تحت إمرته، هو أنه كل ما انتهى من بناء دار سكني أو مجموعة من المحلات للبيع والشراء أو حظيرة للحيوانات كان يجمع العمال ويولم لهم وليمة بسيطة من الجبن والزيت والزعتر، وهذا ما كان يساعد هرقل على سد رمقه، في أحد المرات وهم يبنون حظيرة كبيرة لرئيس القرية، كان هرقل قد وقع تحت نظر رئيس القرية بعد أن وجد لغته تختلف عن الآخرين وأنه أكثر الآخرين حرصاً في عمله، أقترح عليه أن يعمل معه في الأشراف على الفلاحين، وأن يسكنه أحد الغرف الفارغة في مزرعته مع بعض الأجر البسيط والغذاء .

بدأ هرقل يسترد عافيته، بعد أن تحول من عامل إلى مشرف يعمل تحت إمرته مجموعة من الفلاحين والرعاة، بدت السماء ملبدة بالغيوم وكلما فرغت منها عادت وتجمعت من جديد، حتى مطرت تلك الغيوم، وفاضت الآبار، ومن ثم أخضرّت الأرض وازدهرت الزراعة، أما الأغنام فمن ثقل ذيلها الذي كانت تنوء تحته كلما مشت مسافة استراحة قليلاً، وبدل من أن تنجب حملاً واحداً كانت تنجب توأماً، أما شجرة الزيتون فقد تضاعف حملها، حتى تدلت أغصانها على الأرض، وأقترح عليهم أن يربوا خلايا النحل ففيه مكسب كبير وجهد قليل .

في الليل كان يجلس الاثنان يتسامران ويعيدان ما مضى عليهم من الألم وحزن، بعد أن اطمأن أحدهما للآخر، قال صاحب المزرعة أنا من الأسرى الذين عادوا من أرض بابل، بعد أن تم أخصائي لأني تزوجت من أسيرة مثلي، وكان هذا مخالف لقوانين بابل، ولكنهم لم يعرفوا أنني قد أنجبت ولداً وبنتاً كنت قد تركتهما هناك، دون معرفة منهم، وعندما عدت إلى أرضنا هنا كانت أمي قد توفيت أما أبي فلم يكن ليفعل شيئاً سوى الحزن على أخي الذي قتل وأنا الذي غبت في غياهب الأسر، وكما ترى الآن فأنا وزوجتي أصبحنا كبار السن، ولا يوجد من يخلفنا في أرضنا حتى أقاربنا كلهم اختفوا بين ميت وأسير بقي في أرض بابل .

أما هرقل فقد كان في حيرة من أمره، هل يبيح للرجل بالسر الذي من أجله ترك كل ذلك الجاه والعز، أو الأفضل أن يبقى مستمعاً له، كان لنسائم الصيف وطيب الجو وصفاء السماء

وكثرة الخير الذي بدأ يفوح من الأرض، إضافة إلى اطمئنان زوجة صاحب المزرعة له، كل ذلك وغيره من الظروف التي جعلت هرقل يبوح لهم بكل أسراره فقال : أنا من بلاد النيل وأصول أهلي من أرض بابل، ولكنهم ضاعوا بين قتيل ومهجر، حتى إذا ما وصلوا إلى بكة عادت الحياة بغضها مرة أخرى ليأتي جدي إلى بلاد الشام، ومن ثم أبي إلى بلاد النيل، والأهم من كل ذلك، أنني رفضتُ أمرين والذي بسببهما جئت إلى هنا، الأول أنني لا أعترف بتعدد الآلهة التي يعبدونها هؤلاء الناس، والأمر الثاني هو أنني أرفض القهر الذي أراه على وجوه الفقراء والمساكين فأردت أن أقوم بثورة على الملك إلا أن أحد أقارب زوجتي وشى بي عند الملك فما كان من حالي إلا كما ترون بعد أن كنت ضابطاً كبيراً في الجيش الملكي .

لم يكن لصاحب المزرعة وزوجته من أن يصدقا ما تناهى إلى سمعهما، أيعقل أنك موحد مثلنا قال صاحب المزرعة ذلك في سره، أما زوجته فلم تتماسك نفسها، حتى أعلنت فرحتها واحتضنت زوجها، تفاجأ هرقل مما رآه، وفي الوقت نفسه فرح فرحاً شديداً عندما رأى ذلك يسر صديقه وزوجته، لكنه ظل يسأل صاحب المزرعة عن بعض الأمور التي لا يعرف لها تفسيراً ، فما كان منه إلا أن بدأ يجيبه عن البعض منها وزوجته تجيبه عن بعضها الآخر.

أصبحت العلاقة بين الثلاثة علاقة روحية فكانوا يذهبون في أيام محددة إلى المكان المقدس في وسط المدينة، ويتلون

صلواتهم، ويدأ هرقل يعرف الحلال من الحرام مثلما تفقه بأمور التوحيد، وأصبح يكتبها على بعض من أوراق البردي وجلود الحيوانات ليحفظها من النسيان، كانت صحة زوجة صاحب المزرعة ليست على ما يرام فقد أخذت منها أيام الأسر كل صحتها، مثلما أخذت منها أيام العودة إلى أورشليم القدس الباقي ، ولم تكن في البيت سوى شبح كلما استعادت بعض من صحتها حتى تنتكس من جديد ، ولكنها هذه المرة يبدو أنها بوادر النهاية .

أعلن صاحب المزرعة الحداد على زوجته، وصام عن الأكل ثلاثة أيام، رغم أن صحته ليست على ما يرام هو الآخر، بعد مضي أكثر من شهر أصبح وضع الاثنين دون امرأة أقرب للجحيم، فأقترح صاحب المزرعة على هرقل أن يتزوج، بدلاً من الوحدة التي يعيشانها الآن، ولكنه اعتذر عن ذلك بحجة عدم امتلاكه المال والمكان، لكن صاحب المزرعة تعهد له بذلك فقد أعلن بين الجميع أنه أخوه الذي أشيعت وفاته سابقاً خاصة بعد أن علم بتوحيده .زفت له عروس لم تتجاوز سن العشرين، رغم أن عمره كان على أبواب عتبة الأربعين ولكنه يمتلك من القوة ما يستطيع ترويض المهرة الأصيلة، ورغم الجمال الذي تحمله الفتيات في هذا السن ولأنها من أرض تعد منبع الجمال، فسرعان ما تناهت مع ذكورته المفرطة، وبدت له الزوجة والحبيبة والصديقة والخادمة، وسرعان ما أنجبت له الابن الأول .

أما صاحب المزرعة فكأنه ينتظر لحظة ولادة زوجة هرقل ليسلم الروح، بعد أن سجل كل أملاكه باسمه خوفاً من أي

طارئ، هكذا وبعد رحلة عناء طويلة، أستعاد هرقل من جديد مجده الذي بدأ يحقق جزء منه، من خلال بحثه عن الأفراد الأربعة الذين أتوا معه من بلاد النيل وحال ما عثر على أولهم، أخبره أن أحدهم مات أما الآخر فقد عاد إلى الديار، والأخير قد اشتغل في دير عبادة .

أنجبت زوجته توأماً في المرة الثانية ولم يتم العقد الأول من زواجه بعد ذلك إلا وهرقل له أحدَ عشر طفلاً بين ولد وفتاة، ومن ثم أنشأ بيت عبادة في نهاية المزرعة وبدأ يذهب إليه هو وأبناؤه وزوجته لأداء العبادة، بدأت أرضه الزراعية تتوسع بعد أن أشترى الأراضي المحيطة بها ممن أراد البيع، وهكذا تحول إلى شيخ قبيلة صغيرة بعد أن تزوج أبناؤه الكبار وأصبحت البستان عبارة عن مزرعة بشرية وليس نباتية .

بلغ هرقل من العمر عتياً وأصبح يمشي على ثلاث، بعد أن تسلم أولاده وبناته زمام الزراعة والأعمال الأخرى، في ليلة بدا القمر فيها بدراً والسماء صافية من كل ما يعكر صفوها، جلس هرقل على فراش بالقرب من زوجته كان قد أعده سابقاً في وسط باحة البيت المكشوفة للسماء، أزال العمامة عن رأسه حتى بدا شعره كقطعة بيضاء من الثلج، ثم أزاح عباءته عن ظهره بصعوبة بالغة، وتمدد بجسده النحيل على الفراش وبدأ يتفكر بملكوت السماء .لم يستطع مقاومة جفنيه العلويين وكأنهما امتلكا طاقة ملك النوم حتى أطبقا على الجفنين السفليين، وذهب في نوم عميق هذا ما شعر به وهو ينتظر ما يخبئه هذا النوم بعد أن أنكشف له فضاء

أبيض جميل، من عين السماء ظهر له فارس بلباس أبيض يمتطي جواداً سابحاً ومتجهاً نحوه ومن حوله هالة من الضياء القوية، أقترب منه فنهض هرقل من فراشه لينظر من الآتي نحوه ... لم يكن ليعرفه وسط هذا الوضع المهيب ... نزل الشيخ من حصانه وسلم عليه وقال :

- ألم تعرفني بعد يا هرقل ؟

- أن فيك شبه كبير من أبي .

- أنا عمك هرقل الذي غادر بلاد الشام راجعاً إلى أرض سومر، حتى أرفع عنكم اللعنة التي حلت بنا وبأجيالنا .

- صحيح لقد أخبرني بذلك أبي ننورتا ... كيف حالك يا عمي .

- اليوم تستطيع النوم هانئاً لقد رفعت اللعنة عنا بعد أن أوفيت النذور، ولكن طير الــ(زو) أصابني بصاعقة قوية أرداني طريح الفراش حتى فارقت الحياة .

- لا تحزن يا عمي سألحق بك قريباً لأكون لك خير أنيس وتكون لي خير جليس .

انتهت

الشـــــــــــــــــــــاهدان

رواية

هو

(١)

تقافزنا مسرعين من سطوح البيوت المجاورة لسطحنا وصولاً الى بيت كان أهله قد هجروه واستطاع أخي (مصعب) من قبل أن يحفر حفرة تقدر متر مربع في العمق، مغطاة بقطعة خفيفة مــن الحديد قرب قن دجاج مهجور لنختبئ بها لحظة وصــول جنــود الطاغية الى زقاقنا بعد تطويق المنطقة كلها من قبلهم ؟

بعد مرور أكثر من ساعتين وعندما تهدأ الشوارع من زعيق السيارات والعسكر الراجل وبعد أن تعاود العصافير زقزقتها مــن جديد، نشعر بالأمان، نبدأ برفع الغطاء الحديدي الممتلئ ســطحه بأوراق الأشجار المتساقطة عليه قليلاً نحو الأعلى لنطمأن أكثر ثم ندفعه نحو الخلف حتى يدخل الضوء الى داخل الحفرة لنخرج منها ونعود من السطوح مرة أخرى الى بيتنا .

استمرت هذه الحالة لأكثر من شهر ونحــن نعــاود الظهــور والاختفاء من وإلى بيتنا ولم يكن هناك منفذ للخــروج مــن هــذا الحصار المطبق على البلدة كلها، في أحد المرات وبعد نزولنا من سطح بيتنا الى باحة الدار سمعنا صوت عويل ينفر من فم أمــي بكل الاتجاهات ليخترق كل الأبواب والشبابيك ... عندها ظننت أن شيئاً ما قد حصل لأبي ولكن والحمد لله ... وجدته يحنو على أمي

محاولاً تهدئتها، لكن أختييً الاثنتين كانت ملامح الحـزن باديـةً عليهما وهما تبكيان ولكن بصوت واطئ ... ترى ما الخطب الذي حل بـهما ... قال أبي :

- أن أحد الضباط أراد الاعتداء عليّ بالضرب بعد أن قذفني بالسباب والشتم فعزّ على أخيك (إسماعيل) فمنعه من ذلك، فما كان منه إلا أن أمر الجنود بأخذه عنوةٍ الى الحجز بعد أن رفض الذهاب معهم .

- وهل يعقل ذلك ... فهو طفل لم يتجاوز السادسة عشر من عمره .

- لقد قال أنه من المشاغبين الذين ثاروا ضد النظام .

- وهل يعقل ذلك..فهو طفل لم يتجاوز السنة السادسة عشرة من عمره.

- عندما تهدأ الأمور وينسحب الجيش الى ثكناتـه ويعلـن انتهاء حضر التجوال سأذهب إليهم وأخرجه من قبضتهم .

لم يعد لنا بعد اليوم هنا من معيشة، يجب أن نرحل الى العاصـمة فهناك يمكننا أن نعمل ونختبئ ... أجمعوا ما عندكم من مال ؟

قال مصعب:

- إن كل ما لدي هو ديناران .

أما ياسر فقال:

- أنا عندي دينار ونصف .

قال الأب:

- وأنا عندي ديناران .

قال ياسين لأخوته:

- أعطوا ما عندكم لأبيكم فأنا معي خمسة دنانير وهي كافية لوصولنا العاصمة وبعدها (يحلها الحلال) ولكن قبل ذلـــك أذهب الى صديقك يا (مصعب) وخذ منه مفتاح البيت الذي يسكنه مع أصدقائه الطلبة في الحيدر خانة حتى نستقر فيه بعد وصولنا وعند ذلك سنخطط للأيام المقبلة .

(٢)

بدأت الأيام الخمس عشرة المدفوعة الأجر من صديقنا للبيت، تتآكل مثل أيام الربيع ونحن لا نملك سوى بعض الكيلوات من العدس والتبغ غير المعبأ الذي نلفه على ورق لننفث من خلاله خوفنا من المجهول عند سماع أقدام تطرق حافة دارنا من ذلك الزقاق الضعيف إضافة الى حيرتنا فيما سوف يقرره الظرف الذي نحن الآن جزء من رهائنه ورهانه .

جاءت أم البيت تطلب إخلاء الدار، وبما أننا لم نحصل على عمل وكل ما أتينا به من كربلاء مبلغ قدره (٥) دينار مما اضطرنا الى البحث في نفس المنطقة كونها أكثر أمناً ولأنها بعيدة عن شبهات الحكومة وعيونها المنتشرة في أغلب أماكن العاصمة كأنها حيوانات القمامة التي تشم روائح الفطائس من على بعد، بعكس المناطق التي سكنها الكثير ممن هربوا من محافظاتهم وخاصة جنوب بغداد ؟

في صباح اليوم التالي خرجت باتجاه شارع الرشيد نزولاً نحو سوق المتنبي والسراي أسأل عن سكن بعيداً عن العيون المراقبة والفضولية، ولكن كانت الخانات قد استغلت أما كمخازن للكتب والقرطاسية، وأما كمطابع للكتب والدفاتر، وصلت الى تمثال معروف الرصافي المصنوع من البرونز الأسود، حيث يضع يده في جيبه الداخلي، وقفت بعض الوقت أمامه أتساءل الى متى يبقى الإنسان مطارد داخل وطنه ... حتى رموزنا الوطنية لا

نعرفها إلا بعد الموت لتتحول الى تماثيل ونصب وسط الساحات ولا نقرأها إلا في الكتب المدرسية، لماذا يصر الحكام على أنهم الوحيدون الذين يجب أن يمجدوا وتوضع صورهم وتماثيلهم في كل تفاصيل حياتنا ؟ لماذا أنت يا معروف تنكر قوميتك الكردية ... أتظن أنني لا أعرف أنك من الكرد المستعربين مثل الكثير من أبناء هذا البلد ... لماذا ؟ أنطق تكلم ولا تخف ... أتريد أن أرميك بحجر كما فعل (مايكل أنجلو) عندما ضرب تمثاله الذي كان على شكل النبي (موسى) عندما وصل به حد الكمال وقال له أنطق يا حجر ... ولكن هل الحجر سوف يشعرك بأن كل ما يحيط بك قد تغير وأن الشعب قد ثار رغم إرادة الشر والطغيان التي بطشت بنا وشتتنا على خرائط الزمن مثل أعاصير الرياح وتغيرات الطقس .

شعرت أن وجه الرصافي قد تغيرت ملامحه وقد أغرورقت عيناه بالألم والحسرة ولكنه خاف الحديث معي حتى لا يغتالوه مرة أخرى، فأسرني بالقول أنني لا أنتمي الى أي قومية أو وطن ولكني أنتمي الى الإنسانية التي دمرها الآخرون فأنتم تعرفونني كشاعر فقط ولكني مفكر أيضاً ولك أن تقرأ كتابي (الشخصية المحمدية) وأنت تعرف أن سبب دمار أمة العرب هو ... قلت له وكيف لي أن أحصل عليه ... فقال لقد أوصيت بنشره بعد موتي وهو الآن مشاع خارج العراق وبين المثقفين ولك أن تبحث عنه وتجد سبب المأساة التي تعيشها هذه المنطقة... ولكني أختلف معك في ذلك فأنا أحب الدين وأعتقد أن فيه نجاة البشرية من شرورها، من نفسها والآخرين فسحقاً لك ولآرائك القبيحة .

هممت بالرجوع صعوداً نحو ساحة الميدان أسأل من جهة اليسار عن سكن في دار منعزلة كالتي نسكن فيها أو غرفة في خان، كانت الحيرة والخوف تتنازعني لأي فندق من الفنادق المتناثرة هناك أتجه، ولكن صاحب الفندق سيطلب وثائقنا وعندها سيفتضح أمرنا ويعرف أننا من كربلاء وهذا يعني أننا مطلوبون للحكومة، وحتى أذا كان من المتعاطفين مع أمثالنا فهو مجبور على أن يرسل البيانات الى الجهات الأمنية وعندها سنكون مكشوفين لهم ونعتقل في أي لحظة ... وصلت ساحة الميدان وأنا أسأل عن سكن مناسب في أي من الدور التي اتخذت من الأزقة أبواباً صغيرة لتكون لها متنفس، أو بعض الخانات، ولكني لم أجد أي ملجأ نختبئ به من العيون المنتشرة والتي أشعر بها ترمقني من أولئك المحدقين، طفقت راجعاً من رأس الميدان نحو الدار وخلتُ في نفسي أن أسأل أصحاب المحلات وبعض الباعة المتجولين المتناثرين هنا وهناك ... صادف أن أجابني أحدهم وقادني الى خان عتيق في أحد الأزقة من جهة الحيدر خانة الأخرى فشكرته وأعطيته مبلغاً بسيطا، وبالفعل وجدت غرفة، كانت في تلك الأزقة المحاطة بسواتر قذرة تجمع النفايات والقمامة تمتد الى أمتار .

يحتوي البيت على خمس غرف بشكل دائري ومن طابق واحد، وقد استأجرت غرفة رقم أثنين بعد أن أخلاها أحد الأشخاص المعاقرين للخمر ورحل عنها الى الأبد ؟ أما الغرفة الأولى فكان يقطنها شخصان وهما يمتهنان التسول فيخرجان

صباحاً وباتجاه معاكس فالأول كان مختصا بالمصارف ودائرة التقاعد وهو على إطلاع كامل بأيام توزيع الرواتب على الموظفين وفي الأيام الأخرى كان يتسول في الأسواق الشعبية لبيع الفواكه والخضر ؟

أما الثاني فكان مختصا بالجلوس قرب البارات وبعض الملاهي التي تفتح أبوابها بعد غروب الشمس ؟ أما الغرفة الثالثة فكان يسكنها اثنان من اللصوص المحترفين بالسرقة وخاصة في المناطق المزدحمة، أما الغرفة الرابعة كان يقطن فيها اثنان من الخمارة وجلٌ الحديث الذي يدور بينهم في باحة البيت لا يبتعد عن كونه أسمى شيء يمكن أن يفكروا به بل هو لا يعد تفكيرا بحد ذاته بل تخريفات ينطقون بها متى ما تناهى الى أفواههم الحديث ...

أثناء إعدادي للأكل في باحة البيت والذي يدور حوله بعد اكتمال نضجه ثمانية أشخاص من أهالي كربلاء ممن فروا من الاعتقالات والذين يجوبون الشوارع بحثاً عن عمل ولكن دون فائدة فيرجعون الى البيت ولكن يشاركوننا طعامنا .... تناهى الى سمعي حديثهما حيث قال الأول أنه أشترى صندوق من (العرق) مع صندوقين من (البيرة) وطيلة فترة حرب الخليج الأولى لم يشعر بالعوز وهو يحمد الله ويشكره على ذلك أما الثاني فيقول له : أن من فضل الله عليه أن هيأ له شخص يجلب له (العرق) طيلة الــ(٤٥) يوم وهو عمر الحرب على بغداد والعراق ... كل هذه الأمور وغيرها عرفناها في الأيام التالية من السكن ؟

هكذا مضت الأيام وبدأنا نكتشف المكان رويداً رويدا ...
كان في المقابل من البيت الذي نسكنه دار يتكون من طابقين يتجاوز عمره السبعين عاما تقريباً... تسكنه عائلة تمتهن الدعارة الميسرة والتي لا تكلف من يعاقرها الثمن الكبير ... كانت تسكن العائلة في الطابق الأرضي أما الطابق الثاني فكان عبارة عن غرف فارغة لا تحتوي كل منها سوى على سرير من حديد ليتحمل ثقل جسدين وهما يمارسان عملية الجنس ... وبما أن كل ذلك كان في صيف عام ١٩٩١ والذي نتخذ فيه من سطح الدار فراشاً ومن السماء غطاءً ... وكذلك البيت المقابِل لسطحنا الخالي من الستائر والذي تخرج شناشيله الى الأمام حتى تكاد تلامس حافة سطحنا، ولانعدام الكهرباء في أغلب الأحيان كانت تلك الشناشيل تفتح أبوابها على مصراعيها لذلك كنا نرى ونسمع كل اللهاث والآهات الجنسية المنطلقة من ذلك الفحل الذي يمتطي تلك السمراء السمينة ... وبالمقابل كانت تلك السمراء تغني بعض الأغنيات البغدادية (يمعيون حراكة ... كولي شوكت نتلاكة ...) غير آبهة بذلك الفحل الذي يصعد عليها فسرعان ما ينتهي وبعد الغسل وبمدة قصيرة يصعد آخر ....

في صباح اليوم الثاني خرجنا من جديد الى سوق الصفارين نبحث عن عمل فالتقيت بأحد الأصدقاء القدماء (فواز) وسألته عن عمل .... فقال إن عملكم شبة منقرض ؟ ولكن يوجد بقايا لبعض من ذلك العمل وهو تبييض بطون القدور النحاسية من الصدأ والطبخ في منطقة تسمى (عكد الجام) وبالفعل ذهبنا الى

هناك وبدأت أسأل عمن يمتهن هذه المهنة ووجدنا أحد الأشخاص يدعى (أبو محمد) وهو صاحب خان كبير توجد في داخله محلات صغيرة وهرمة كهرم أزقتنا وطلبنا منه أن يؤجر لنا أحد المحلات إلا إنه رفض ذلك مدعياً عدم وجود أي منها فارغ وبعد كثير من الإلحاح أشترط علينا شرط مفاده أنه يؤجر لنا بقيمة نصف العمل الذي ننتجه ؟

هذا الشخص مثل الكثير من الشخصيات المشوهة التي نزحت نحو بغداد، وبما إنه لا يمتلك أي من المواصفات العلمية والعملية ولم يكن صاحب رأس مال أو عمل فقد تدرج في المهن الوضيعة ما بين الحمالة والسكن في بعض فنادق العلاوي الرخيصة ثم أمتهن بعض أنواع الدعارة والخمارات حتى وصل الى (عكد الجام) وأستأجر هذا المكان وهو من أملاك اليهود المسفرين أبان الأربعينات بمبلغ زهيد من أمانة بغداد وأصبح ملاك علينا نحن الفارين من نير الحكومة أن نذعن لما يقرره أو.... هذا ما أخبرني به بعض أهل المحلات داخل الخان ؟

من الأشياء الجميلة التي تهون علينا ما نحن عليه، هو الحمال (عبود) أو الموصلاتي فهو لا يعمل عند أحد بل هو صانع لدى أصحاب المحلات في السوق كله، لأنه شخص فقير وأمين ويعمل كل ما تطلبه منه... فيجلب للبعض (العرق) مثلما يجلب للآخرين سجادة الصلاة ... ينقل بعض الأغراض الى جهة الرصافة ويأتي بأغراض أخرى من جهة الكرخ دون عجز أو كلل ... وأذكر أني

شاهدت مثل هذا الشخص في أحد الأفلام العربية تحت عنوان (الهلفوت) لعادل إمام ...

كنت متعاطفاً معه جداً وفي أحد المرات سألته عن السبب الذي أوصله الى هذه الحال ... إلا أنه لم يكن بعد هذا العمر الذي تجاوز الأربعين ليبالي بما ذهب من العمر أو الآت منه فقال:

- أنا من مدينة بابل، أبي يعمل عطارا لم أكن لأتم دراستي فتركتها بعد أن حصلت على شهادة الابتدائية، وبقيت أعمل في محل والدي الذي لا يملك سواي وثلاث بنات، حتى إذا ما أعلنت الحرب رعافها كنت من المدعوين للخدمة الإلزامية ... هكذا بدأت شعلة الحياة تنطفئ بعيني والأمل ينحصر مثل بقايا الغروب، وبما أني كنت أرى أقراني من الجنود يجزرون يومياً أما بإطلاقة مدفع من العدو أو من هجوم نشنه عليهم أو من حالة دفاع لنصد هجومهم، حتى أصبح الخوف كأنه صرير يقد أذني ولم أستطع أن أقاوم الموت المجاني الذي أراه يومياً مثلما لم أستطع أن أقارع الخوف الذي يتلبسني ورغبتي بالحياة عندما تنتهي إجازتي الدورية وأهم بالرجوع الى جبهات القتال من جديد، وبعد مرور أكثر من سنتين على الحرب كنت حينها قد تزوجت من أحدى قريباتي من الأرياف ... والأهم من كل ذلك أنه لا توجد قضية حقيقية من أجلها يقاتل الإنسان أو يخوض الحرب، لذا بعد التوسط بدأت بدفع الرشاوى الى الضباط لأسحب الى الخطوط الخلفية

أو أنقل الى الأماكن الأكثر أمناً مثل معسكرات التدريب والآمريات التي ملأت البلاد، وبما أنني لا أملك المال ولا الشهادة المدرسية العليا التي تؤهلني إلى أن تحترم إنسانيتي، بعد فترة كنت قد مللتْ كلمة (سيدي) لكل من هب ودب، فقررت عندها أن أتخذ القرار الفاصل وهو عدم مشاركتي في هذه الحرب اللعينة بعد الأجازة الأخيرة التي أحصل عليها، فكان لي ما قررت .

- ماذا فعلت، هل هربت من الجيش أم حاولت الهروب الى خارج البلد؟

رد قائلاً:

- لا هذه ولا تلك، فقد كان لي صديق يعمل نجاراً وهو موظف في الوقت نفسه، وعندما نزلت في أجازتي الدورية الأخيرة ذهبت إليه وكنت متفقاً معه مسبقاً على قطع أصبعين من يدي اليمنى هما (الوسطى والسبابة) فهذا هو السبب الوحيد الذي ينقذني من دوامة الحرب والموت الدائرة في هذا البلد كما يوحي أنها لن تنتهي أبدا ؟ وبالفعل لم يكن صديقي ليخذلني فأغلب من يحيطون بي يعرفون أنه لا توجد قضية حقيقية من أجلها يموت الإنسان فكيف بالحرب المصطنعة بين شخصين وليس شعبين ... عندها دخلت المستشفى مغمى عليّ ومن ثم نقلت الى المستشفى العسكري في بغداد، وبعد أكثر من شهرين تم أخراجي من الجيش تحت عنوان معوق لأسلم على باقي

أجزاء جسدي، فالتضحية بالجزء خير من التضحية بالكل ... إنها تجارة بالأعضاء مع عزرائيل ولكنها خاسرة، وبعد كل ذلك لم أستطع العيش في محافظتي فقد كرهتني وكرهتها ... عندها قررت الهجرة نحو العاصمة وتنقلت بين الأعمال والفنادق حتى وصلت الى ما وصلت إليه الآن كما ترى فأنا شبه إنسان أو لنقل مسخ إنسان ؟

بدأت دورة العمل تدور وبدأنا نصل النهار بالليل من أجل سد الرمق والاختفاء من العيون المتلصصة والتي تسأل عن كل جديد داخل السوق فحتى الغذاء كان يجلبه لنا (عبود) ولكن جهدنا يصل حد سد الجوع فقط ... كون أن صاحب الخان كان يأخذ نصف ما نحصل عليه.

وفي أحد الأيام جاء شخص من منطقة الكاظمية الى صاحب الخان ليشتري منه (البطش) والتي يستخدمها في تنظيم النحاس وبعض المعادن الأخرى .

عندما سمع بنا إننا من كربلاء أصر على استضافتنا في بيته ... وبالفعل لبينا له الدعوة ووجدنا أن الرجل قد عمل لنا وليمة لأكثر من عشرة أشخاص بالرغم من أنه يعلم أننا ثلاثة ولكن هذا طبع العراقيين في الولائم والمناسبات الأخرى، ثم دار الحديث بيننا عن الأوضاع العامة في البلد وكذلك عن سبب مجيئنا الى بغداد والعمل فيها ... ولكننا لم نكن صريحين بما يكفي لنبوح له بسرنا ... وبمثل سؤاله بادرته عن سبب مجيئه لخان (أبو محمد) لأن هذا

الشخص كان يقصد إذلال هذا الرجل بتكرار المواعيد وتأجيلها فقال :

- أنه الوحيد الذي يبيع البطش .
- ولكن حسب علمي أنه لا يمتلك هذه المادة في الخان .
- لقد أفهمني أنه المستورد الوحيد لها ويخزنها في أماكن بعيدة عن الناس لرائحتها القوية، وأنا أشتري منه هذه المادة من قبل ثلاث سنوات تقريباً .
- هذا مستحيل وسأبحث لك عن المكان التي يأتي بها منه ؟
- هل تقصد أنه ليس بتاجر ويشتريها من التجار الآخرين ... هذا جميل منك لن أنساه .
- ولكن أخبرني بكم تشتري منه برميل (البطش) .
- بثلاثة ملايين .
- أنه مبلغ كبير ؟
- أن عملي كما تعرفون يرتكز على هذه المادة ولا مجال لاستبدالها أو الاستغناء عنها

ثم تبادلنا الأحاديث الودية بالأمور العامة وبعدها استأذناه بالرحيل .

في اليوم التالي ظللت أراقب (أبو محمد) حتى ذهب في مشـوار فأرسلت بطلب (عبود) الحمال لأستفسر منه عن (البطش) الـذي يجلبه من أين فقال :

- عندما يأتي الحاج (محمد) الكاظمي لطلبه ويؤجل الموعد (أبو محمد) لمدة ساعة يرسلني بعدها الى جهة الكرخ الى الحاج (حمودي غلام) .
- ومن هو (حمودي غلام) ؟
- أنه إمبراطور في هذا المجال فهو يجهز كل المعامل فـي العراق بالإضافة الى الجامعات العراقية بالمواد العلميـة التي تخص المختبرات !

بعد أن أخذت العنوان منه ذهبت عصرا الـى المكـان وبالفعـل وجدت قطعة كبيرة تحمل أسمه فدخلت عليه ووجدته مثلما وصفه لي ... فالمكتب ضخم يدل على ضخامة الشخص :

- السلام عليكم .
- وعليكم السلام .
- أريد أن أشتري منك (٣) براميل بطش، فهل توجد عندك هذه الكمية.
- أنا أجهز العراق بهذه المادة ... كم طـن تريـد ... الآن تستطيع تحميلها .
- وبكم تحسب سعر البرميل .

- ٦٠٠ ألف دينار هو سعر البرميل الواحد .

صدمت بهذا الرقم فقد تناهى الى سمعي أن سعر البرميل الذي يبيعه (أبو محمد) الى الحاج (محمد) هو ثلاثة ملايين ... دخل أحد العمال وهو يحمل (صينية الشاي) ثم وضع قدح الشاي أمامي ... تنبه الحاج (حمودي غلام) للسهو الذي أصابني ولكن لم يعر أهمية لذلك ... فأخذ يذوب السكر بالشاي منتظرا الجواب مني :

- سآتي في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي وأحمل البراميل .

- لا ضير في ذلك فالمكتب مفتوح والخان مملوء .

- في أمان الله .

- مع السلامة .

لم أكن أستوعب الرقم الذي طرحه (حمودي غلام) مقارنة بالرقم الذي يبيع به (أبو محمد) نفس البرميل والفرق هو الجسر الذي يفصل الرصافة عن الكرخ ... فأخذت الطريق مشياً وأحسب قيمة الفرق بالإضافة الى الحقارة التي يعامل بها هذا الوضيع ذلك الكريم ؟

بدأت حياتنا تتغير من جديد وأصبح لنا زبائن يقصدوننا وأنا أشيع بينهم أن لدينا الدراية الكاملة بصنع (دلال القهوة) بعد أن قدمت لهم بعض النماذج الجيدة وبالفعل أتت لنا أول صفقة في إنتاج الدلال ... عندها ذهبت الى (أبو محمد) لأتفق معه أن ما

يخص الدلال خارج عن الاتفاق وندفع له إيجار نصف المحل وبالفعل وافق اعتمادا على إن مثل هذه الأعمال لا يوجد لها زبائن ولكن بعد أن دارت العجلة وبدأ العمل يثري ونعقد صفقات كبيرة للدلال ...

بدء بتصرفاته الدنيئة وهي سرقة بعض المواد التي تدخل في عملنا فيجمعها وبعد حين يأتي ويعرضها علينا للبيع فنشتريها وهكذا لكنه لم يكتف بذلك خاصة بعد أن رأى وجبة كبيرة من الدلال تخرج أمام عينيه باتجاه سوق الصفارين ... عندها جاء إلينا مطالباً بإلغاء الاتفاق القديم وهو الإيجار والدخول شريكا معنا في صنع الدلال أيضاً لكنني رفضت ذلك ما يعني إخلاء المحل وبالفعل بدأت البحث عن محل جديد ...

ربما من حسن الحظ أن القدر مثلما يهيئ السيئين في طريقي يهيئ الجيدين أيضا، وبالفعل هيأ أحد أولئك الطيبين في طريقي ودلني على أحد البيوت القديمة والذي تسكنه عائلة فقيرة تتكون من زوج عاجز له من الأطفال والزوجة ما يصعب عليه إعانتهم ... فاستأجرنا منه غرفة بالإضافة الى باحة البيت وأعطيته إيجار شهرين مقدم ... نقلنا أغراضنا التي هي عبارة عن بعض المطارق والمقصاة القوية التي تقص النحاس بسمك مليمين والقدور البسيطة التي نضع فيها تلك المطارق والسبب أنها تشرب الماء فتنتفخ وتمسك برأس المطرقة عند الطرق والسندان والفحم الأسود و(البريمز) ...

بدأنا العمل مجدداً إلا أن ذلك لم يرق لأبى محمد فسلط علينا أحدى النساء التي تشبه الكثير ممن يسكن تلك الأزقة الموبوءة، لتطرق الباب وتستفسر عنا من نكون ؟ ثم بدأت بالصياح والتهديد والوعيد وبأنها ستتصل بالأمن إذا لم نخلِ المكان فخرج لها أحد أصدقائنا ممن ألتحق بنا بعد هروبه من مفارز التفتيش والاعتقال متوسلا اليها بالرجوع عن ذلك وبأن تخفض صوتها وبأنهم لم يفعلوا ما يثير غضبها ولكن كل ذلك لم يجد نفعاً فصوتها كلما أريد خفضه تعالى أعلى وأعلى مرة أخرى... فما كان مني إلا أن خرجت لها وبدأتها بالشتيمة والصياح أيضا فما كان منها إلا الهرب والدخول الى دارها فلحقتها لكنها أغلقت الباب في وجهي فضربت تلك الباب اللعينة محاولاً اللحاق بها دون جدوى فقد أغلقت الباب من الداخل بالحديد ...

عندها رجعت الى أخوتي وقلت لهم هيا أجمعوا الأغراض وانقلوها على أحدى العربات وألحقوا بي الى الحيدر خانة .

رجعنا من جديد الى المربع الأول نبحث عن مكان وعن عمل إلا أننا لم نستطع أن نقترب من (عكد الجام) بعد ذلك الموقف، ولكن الأمور بقيت هكذا لمدة أسبوع والأصدقاء الغرباء يتجمعون في الغرفة وقت الأكل ويفترشون سطح الخان أثناء النوم حتى أتى اليوم الذي دخل فيه المختار ألينا يسأل من هؤلاء وأين يسكنون فانبرى له (أبو جبار) وكيل الخان كون صاحبه من المهاجرين الأوائل من العراق إذ لم يخل عقد من العقود والعراق ليس فيه هجرة حتى امتلأت أقطاب الأرض بهم ... بالقول إنهم يسكنون

عندي في هذا الخان وأنا مسجل أسماءهم ولا يوجد خلل في معلوماتهم ...

لكن الأمر أصبحت فيه مخاطر وهم لا ينفكون عن المجيء والمبيت دون أحساس أو شعور بالمسؤولية مما اضطرنا الى التفكير جدياً بالانتقال من هذا السكن ... خرجت أبحث عن مكان للعمل ووجدت أن الرصافة لم يعد لنا فيها رزق فآثرت الانتقال الى الكرخ ...

بالفعل وجدنا خان عتيق قرب ساحة (عدنان) في منطقة (شيخ صندل) بسعر (٢٠٠) دينار وبدأنا العمل من جديد ورجع الزبائن يتوافدون علينا مرة أخرى وصادف أن التقيت في أحد الأيام وأنا أعبر الجسر باتجاه (الحيدر خانة) أحد الكربلائيين ممن أعرفهم في محافظتي حق المعرفة ولنا بهم علاقات عائلية حميمة ، ثم أخذته للغرفة القذرة الممتلئة بقطوف السجائر والأحذية المختلفة كأنها (كشوانية) وأكواب الشاي لأدله عليها ويأكل معنا ما قسمه الله لنا من الرزق وقد كنت قد أتيت كالعادة ببعض الفواكه والخضروات وبدأت بأعداد العشاء ...

أكل معنا ثم صعدنا الى سطح الدار الخالي من الستائر وفرشنا بعض المقوى من الكارتون التي ننام عليها وهكذا أنقضى الليل وودعنا صباحاً لتتوالى الزيارات ويدلني بدوره على المكان الذي يعمل فيه كشريك متحفظاً حذرا حيث فيه الآن زبائن كما

رأيت بأم عيني ما اضطرنا للجلوس في أحد المقــاهي المجــاورة للمنطقة في (عكد النصارى) ...

في أحد الأيام وعند العصر جاءنا (محمد عباس سالم) للمبيت كالمعتاد وعند الليل طلب منا مبلغ وقدره (٥٠٠) دينار لبضــاعة جاءته ويجب عليه التسديد فوراً واعتذرت لعدم توفر مثــل هــذا المبلغ الكبير الآن تحت يدي ويمكنني أن أجمعه له بعــد يــومين وبالفعل جاءنا بعد يومين وفي الليل أيضا فأعطيته المبلغ بعــد أن وعدني بأن يرجعه في غضون أسبوع ... وصــادف أن الغرفــة فارغة والسطح كانت مساحاته فارغة ما جعلنا نصــطف ســويةً ونستذكر تلك الأيام الخوالي حتى الساعة الثالثة ليلاً .

عند الصباح استيقظنا ولكننا لم نجد (محمد عباس سالم) فــي فراشه فنزلنا كالمعتاد الى الغرفة لنرتدي ملابسنا ونذهب للعمــل ولكن المفاجأة السخيفة وجدنا أن هذا الشخص قد ســرق المبــالغ الموجودة في جيوبنا جميعا والأهم من هذا كله أنه ســرق دفتــر الخدمة السويسري الذي يؤيد أنني موظف في الطاقــة الحراريــة الواقعة في منطقة المسيب ... ما الســبيل الآن وأصــبحت دون وثائق رسمية تبيح لي السير والعمــل دون خــوف أو وجــل ... فكرت أين أجده عندها تذكرت أن له محل في (عكد النصــارى) فذهبت مسرعا الى هناك ووقفت عند المحل الذي أشار اليّ علــى أنه شريك فيه وسألته عنه فقال :

- هل تقصد محمد الكربلائي .

- نعم .
- هذا شخص نصاب والسوق كله يعرف ذلك... ولكن ما قصتك معه.
- لقد أقرضته بعض المال وأسكنته معي وفي الصباح سرقني !
- لا يفعل مثل هذه الأفعال إلا الرجل الشرير.
- وما العمل الآن فالمهم ليس المال بل دفتر الخدمة.
- حبيبي هذا لا يأتي الى هنا بعد الآن كونه يعرف بأنك ستأتي وتسأل عنه .
- هل يوجد مكان آخر يلتقي فيه
- لا ... فمكوثه في المكان لا يتجاوز السرعة التي ينقض فيها على صاحبه .

رجعت مذهول من هذه الفعلة الكريهة ... كيف الحال وأنا الآن دون وثائق، كاد عقلي يجن لا أعرف ماذا أعمل ؟

أصبح وضع الغرفة داخل الخان لا يطاق ومحل شبهه بعد أن بدء يتوافد عليها شباب لا نعرفهم ولكنهم أصدقاء أصدقائنا، ومحاولات (مصعب) في البحث عن سكن جديد باءت بالفشل وفي إحدى المرات زارنا (أبو سعد) وهو التاجر الأول في استيراد مادة النحاس قبل الحصار الذي طوق العراق ومنع استيراد هذه المادة تحديدا، مثل باقي المواد التي تعتبر ازدواجية الاستعمال فهي تدخل

في صناعة الذخائر العسكرية بالإضافة الى الاستخدامات المدنية الأخرى ... لذا فإن هذه المادة شحت من السوق ونفذ مخزونها عند التجار والمخازن الحكومية ما أضطر الحكومة الى إنزال الأسلاك الكهربائية النحاسية المعلقة بين الأعمدة الكهربائية لتوصيل الطاقة الى الشعب واستبدالها بأسلاك من الألمنيوم... بالإضافة الى أن هذا الشخص يعد من ملاك بغداد الكبار ... فسألته بصيغة عابرة هل ثمة شقة فارغة لديه في أي من عماراته فأجاب :

- نعم .
- أين ؟
- في الاعظمية .
- هذا جيد .
- ولكن إيجارها ٢٠٠ دينار في الشهر .

نظرت في وجهه ... لقد كان المبلغ عال جداً قياساً للوضع العام للشقق خاصةً وأنه أخبرني أنها في الطابق الثالث ... لكن لم يكن لنا خيار نحن المجموعة المكونة الآن من خمسة أشخاص وكلنا مطلوبين للحكومة .

- غير مهم ... نحن في رسم الخدمة .
- تعال معي الآن وأستلم المفاتيح .
- الآن عندي عمل كما ترى .

- سوف يمر عليك أبني عصر هذا اليوم ليأخذك اليها .

- مع السلامة .

لم يراع (أبو سعد) غربتنا وتعثر عملنا والذي بالكاد هو الآن يلتقط أنفاسه ... علاقتنا به وخاصة أبي تمتد الى أكثر من خمسة عشر عاماً ... وعندما كان يأتي الى كربلاء كنا نقوم له بالواجب والاحتفاء به ... جاءنا (سعد) عصراً وأخذنا الى منطقة (راغبة خاتون) حيث السكن الجديد عند وصولنا الى العمارة التي هي مكونة من ثلاثة طوابق وكل طابق يتكون من ثلاث شقق كلها تشترك في شرفة واحدة مطلة على الشارع العام وصعدنا الى حيث الشقة المقصودة والتي تتوسط الشقتين الأخرويتين صادف أن وصلت إحدى الساكنات في الشقة التي على الجهة اليمنى من شقتنا الجديدة وهي (أم علي) فبادرتنا بالسؤال :

- العفو من أنتم.

- أنا ابن صاحب العمارة وهذا المستأجر الجديد .

- عائلة أم عزاب ؟

- فسبقت سعد بالقول نحن طلبة جامعيون وعندما تنتهي السنة الدراسية نرجع الى محافظتنا، في باقي الأيام الاعتيادية فنخرج في الصباح ولا نعود إلا عصراً .

- إذا كان الأمر كذلك فلا ضير ؟

ضحكت في سري من هذا الموقف فما الفرق بين العزاب والطلاب أليس كلاهما يؤديان نفس المعنى ... دخلت الشقة وأعجبتني كثيراً، وأول شيء نظرت اليه هو المرافق الصحية ... فلقد كنا نعاني مشكلة كبيرة بهذا الخصوص بذلك الخان العفن ومرافقه المشتركة .

جلست على الكرسي لأطل من شرفة الشقة على بغداد بقدر ما يستطيع نظري الوصول إليه ... الآن هي تحتضنني مثل أي أم تحتض ولدها بيديها تمنحه بعضاً من دفئها تشعره بالأمان وسط هذا العالم المجهول ... أصحيح الآن أصبح لدينا مكان محترم ننام فيه مثل الآخرين ... أصحيح يمكننا أن ننعم بنوع من الراحة، ربما الأيام حبلى بالمفاجأت فالوضع العام المتأتي من الحصار متوتر والناس في تذمر مستمر ...

ذهبت بنظري الى الأسفل حيث الشوارع متعاكسة المسير والمارة تسير من غير هديٍ في دائرة الحياة المغلقة والتي تبدأ بصرخة الولادة وتنتهي بصرخة الموت وما بينهما هو الفراغ الذي نحاول أن نملأه ؟

رفعت رأسي الى سطوح العمارات والبيوت وهي تتضرع الى السماء بأن يرحم هذا البلد من الحصار الذي يطبق عليه وأهله ... أيعقل الآن وقد مضت سنتان على هربنا ومازلنا؟ الآن وقد بلغت من العمر السادسة والعشرين ولا أملك سوى جسد مترهل بيدٍ عظامها من البلاتين بعد أن عمدت الى كسرها أكثر من مرة حتى

لا أشارك في حرب لا نعرف متى تضع أوزارها ... وحتى عندما وضعت أوزارها لم ننفك من كماشتها حتى دخلنا الى الكويت... واليوم وبعد تلك الثورة نحن مشردون هنا.

في اليوم التالي أخذنا ملابسنا التي لا نملك غيرها واتفقت مع المجموعة أن ندخل أثنين أثنين الى العمارة حتى لا نثير الريبة عند العوائل الساكنة فيها فلا يوجد عزاب أو طلبة على حد قول أم علي سوانا ... توالت الأيام وبدأ (ياسر) أول مشاريعه بإقامة علاقة مع (زينة) بنت (أم علي) فلقد كانت عنده قاعدة ذهبية تقول **(أن المرأة تعشق من أذنها والرجل يعشق من عينيه)** وبما أننا نمتلك شرفة مشتركة فكان (ياسر) يستغل تلك الشرفة عصراً لمغازلة (زينة)، بغية إقامة علاقة معها .

وفي صباح اليوم التالي بعد أن خرجت أمها للعمل في فندق (الشيراتون) وكذلك خرجنا نحن الى منطقة (الشيخ صندل)، بدأ الجيران يطمئنون لنا وبدأت الشقق تنفتح لنا الواحدة تلو الأخرى من خلال (علي) والذي كان يستسهل مشاويرنا له بالتسوق والسجاير وغيرها من الأمور ثم أقمت أنا علاقة مع أمه...

عند ذاك فقط آمنت شرهم بعد أن بدأت هذه العائلة تنتظر منا بعض الفواكه والخضر وأطباق الطعام وكذلك القروض المالية البسيطة ... مع تقادم الأيام عرفت عائلة (أم علي) عن قرب فهي أسرة تتكون من امرأة مطلقة مع فتاة وشاب بالإضافة الى تردد

(أبو علي) عليهم ويقضي أكثر من ليلة عندهم ويمــارس حياتــه الطبيعية حتى عندما سألتها عنه قالت :

- هو يشعر باللذة عندما يأخذ ما يريد من عندي .
- ولماذا لا ترجعون الى وضعكم الطبيعي كزوجين ؟
- هو لا يريد ذلك ... بحجة أن الزواج مسؤولية.
- ولكنه يوفر لكم الآن بعض المال .
- فقط عندما يأخذ ما يريد وبخلاف ذلك لا يعطــي البيــت شيئا.
- وهل تأخذين منه نفقة أو شيء من هذا القبيل؟
- هو بدون عمل وبدون سكن فمن أين له أن حكم القاضـــي بشيء لي.
- وكيف يعيش.
- هو يتنقل من عمل الى عمل دون ثبات .

(٣)

مضى الآن على تواجدنا في الشقة أكثر من ستة أشهر، استطعنا أن نؤثثها بأشياء بسيطة كالثلاجة والتلفاز وبعض الأدوات المنزلية، ومن العادات الجميلة التي أكتسبناها في بغداد هو أن هناك عطلة رسمية لأصحاب الحرف هي الجمعة، هذا اليوم الذي لا نستفيق فيه حتى وقت متأخر من النهار، لينزل من في الشقة للتجول في بغداد، أما أنا فأخرج الكرسي الى الشرفة وأظل أسرح بنظري الى حيث المناظر المتجسدة أمامي مثلما أسرح بذاكرتي في مدينتي وأهلي وأصدقائي، وأتذكر تلك الأيام الخوالي .

حيث يقطن بيتنا داخل فجوة بين جدران بيوت، ذلك الزقاق الذي لا يتجاوز عرضه المترين ليمثل حياة صغيرة كأنه خلية نحل معلقة على أحد أغصان الأشجار الكبيرة التي أسمها الحياة أو كأنه ينبوع ماء يفيض الى المجرى الذي حفره على مدى السنين ليصب في شارع العباس .

كان ذلك الزقاق جزء من منطقة (العباسية الشرقية) مهد الثورات في محافظة كربلاء فقد استمدت قوتها من ذلك الثائر الذي يرقد بين أحضانها ويضيئ سماءها بأنواره ويشيع بشوارعها الأمن والأمان يشيع بشوارعها معنى التضحية والفداء ... كانت العباسية الفكر المتوقد الذي لن يخبو أبداً، وهي مرتع الشيوعية التي قارعت كل الأنظمة الفاسدة التي تسلطت على صدر الوطن، ومثل كل المتناقضات في هذه الحياة الغريبة تلك المنطقة الشيوعية مزروعة

في رحم المحافظة ولكن الجميل في ذلك إنها تشارك الوطن بهمومه وتعبر عن آلامه من خلال إحياء تلك الطقوس الحسينية فهي تخرج بمجموعات متعاقبة في أيام عاشور على شكل كتل بشرية متقطعة لتنشد مجموعة من الهتافات المكملة الواحدة تلو الأخرى فالحسين كان ولا زال رمزاً لكل الثائرين باختلاف مشاربهم ؟

أما كربلاء ذلك المكان الذي ورث القداسة منذ آلاف السنين وختم بالحسين ومازال على محرابه يذبح الآلاف إقتداءً به وثأراً منه وثأراً له، ذلك المكان الذي يتوسط إمبراطورية بابل ولا يزال ذلك الدم الذي لم يجف أبداً مستمر بالنزف، ليمسك أطراف الأرض منذ الأزل ولم تزل على مر العصور، كربلاء الكحل الذي تتكحل به عيون الزائرين والتائهين والطالبين، لكل تلك المراقد المتناثرة على أرضها كأنها اللآلئ تضئ الدروب .

لم تزل مناراً يهتدي بها المهتدون ويشرب من كأسها الشاربون، لم تزل ذلك المهد الذي تربتْ فيه الشمس وكبرت لتنير العالم فتخرج الأجيال تلو الأجيال صفوفاً تنحر كل يوم قرابين على مقاصل الجلادين، لكل ذلك الدم المسفوح على أرضها تسقي الضمائر الصدئة واليابسة بالحياة، تلك القبب الصفراء التي أخذت الشمس منها لونها تشرق على الظلمات لتفضح خباياها، بكل ذلك النخيل الذي يستمد طوله من طول مآذنها ولونه من لون جدرانها، بكل تلك الأعمدة التي تغفو على أرصفة الطرقات، وماء العلقمي الذي يشرب من ذلك الشط الذي يمسك بنهر الفرات، أما أهلها فقد

شربوا من أرضها الحنين والعطاء ورثوا الحب والخير ورثوا الحرية .

من حيث لا تشعر تأخذك قدماك الى ذلك المكان المقدس الذي يعبد من خلاله الرب فترى من الجلال والرهبة ما تقشعر له الأبدان وتخشع عنده النفوس فتترك عليك مهابة المكان الإحساس بالعظمة، لكن كربلاء مثل باقي المحافظات وصلها ذالك المد من التفسخ الاجتماعي الذي أنتجه الظرف الطارئ والهجين، للحد الذي طفح على سطح الواقع هجين مختلف؟

ها هي محافظتي بكل أرثها وتاريخها وقداستها أما عائلتي فتتكون من ستة أفراد (ياسين، ياسر، مصعب، إسماعيل) وفتاتان أما الأم كانت على عكس الأب بتلك الهيئة كأنها نخلة (عيطة) والذي يكون بقربها كأنه أحد فسائلها، لكن الأب يمتلك من الذكورة ما يعوض ذلك القِصرْ والذي أورثه لأولئك الأبناء حتى أصبحت تلك الذكورة باب افتخار وقوة معنوية يستطيعون من خلالها اقتحام أسوار النساء ؟

(٤)

ورث للحاج (ياس) مهنة (الصفارة) وهي عملية الطرق على النحاس وإخراج أشكال جميلة منها ما يستخدم في الحياة العملية ومنها ما يستخدم للزينة، بالإضافة الى عمل صفاري الدبس والطبخ ... وهو من عائلة أصيلة أبوه وجده من القلائل الذين امتهنوا مثل هذه الحرف في الوقت الذي كان لا يسود في المجتمع الذي يعيش فيه غير الزراعة، لكن تعامله مع الأدوات الحديدية من الطرق على النحاس وقص ذلك السُمكْ المتين للمعادن قد أنعكس على سلوكه وتصرفاته داخل الدار .

فهو متسلط وغليظ الكلام مع زوجته وأبنائه، وفي أحدى المرات وعندما كنت طفلا لا يتجاوز عمري السنة الخامسة صعدت السلالم حتى وصلت الى الطابق الثاني، وكان من عادة البيوت عندنا أن تضع خزان لجمع الماء فوق السطح ... وكان بالقرب من ذلك الخزان أنبوب ماء يسمى (الصاعد) وهو يستخدم في الموازنة في جعل الماء يصعد الى الأعلى ويملأ الخزان، كذلك من أجل تنفيس الضغط المتولد من الماء، فأثارَ فضولي ذلك الأنبوب الممتد بجانب الخزان فوقفت بين الخزان وذلك الأنبوب وجعلت رجلي تنفرج بينهما لأدفع بجسدي نحو الأعلى وصولاً الى سطح الخزان ومن ثم فوهته، ولكن الذي حصل هو أن الأنبوب قد تمكن منه الصدأ وبالكاد يقف، وما أن دفعته برجلي حتى أنكسر ونفر الماء منه وأختل التوازن الذي كان بسببه يصعد الماء مما أدى الى إفراغ الخزان بعد زمنٍ قصير ليمتلأ سطح البيت بذلك الفيضان الاصطناعي الذي بقيت ألعب فيه

حتى صعدت والدتي لتأخذني من تلك البركة المائية المعلقة فوق السطح، مما أدى الى انقطاع الماء عن البيت كله ...

الكارثة الحقيقية هي اللحظة التي أتى فيها أبي الى الدار متعبا من العمل وملابسه مغبرة كون أن عملنا في أكثره تعامل مع الفحم من أجل إشعال كورة النار وغيرها من المتطلبات التي تنعكس على ملابس من يمتهن هذه المهنة، ولم يجد الماء من أجل أن يغتسل ويبدل ملابسه ويأكل ما هيأته والدتي من الطعام ، فأخبرته بما فعلته وأن عليه إصلاح ذلك الأنبوب المنكسر، لكن الذي حدث وبعد ثورة غضب أثناء صعوده للسطح ومشاهدته الأنبوب المكسور وفيضان الماء مما زاد ثورته أضعافا مضاعفة فنزل مسرعاً نحوي، وقام بخلع ملابسي عن جسدي وأخذني نحو الأعلى عنوةً بعد أن طلب من أمي أن تعطيه حبل حتى يربطني في المكان الذي أنكسر فيه الأنبوب وبالفعل ربطني حول خزان الماء في مكان كسر الأنبوب ولمدة تزيد على الأربع ساعات ...

لازلت أتذكر ذلك الموقف جيداً حتى أن نجوم السماء قد رقت لحالي وانسكبت بعض الدموع من ذلك القمر الجميل ... وأنا موجود في باحة السطح وأبكي طالباً من أمي أن تخلصني من هذا القيد الذي يربطني... بعد عدة محاولات وتوسلات من أمي صعد أليَّ وفك وثاقي ومن ثم أرجع يديَّ الى الخلف وربطهما وأخذ بالحبل وربطه في الطابق الثاني بعد أن رفعني عن الأرض عدة أمتار وبما أنني قصير القامة ولكن مكتنز الجسد كان متعذر على يديَّ أن تحمل مثل هذا الثقل وكذلك فأن وظيفة الأيدي ليست هي حمل الأجساد بل

مساعدتها بكف الأذى عنه واستمرت عملية التعـذيب مـن السـاعة السادسة عصراً وحتى الواحدة ليلاً عندها أحس أنه أخذ مني ما يريد وأطفأ غضبه بعذابي، والأم المسكينة لم تدخر جهداً في محاولة كسر غضبه أو النيل من عصبيته شيئاً، إلى أن أقتنع بأن ما مـن شـيء ممكن أن يهدئ من روعه سـوى أن يعـاقبني بيـده ففـك وثـاقي وحصرني بالغرفة بعد أن أحضر أحدى العصي الغليظة وعندها بـدأ ينهال بالضرب عليّ في كل مكان تطاله يده وعنـدها رمـتْ أمـي بجسدها عليّ لتحميني من ذلك الغضب الذي كاد أن يؤدي بحيـاتي، في الوقت نفسه أطلقت صوتاً طالبة النجدة من الجيران، عندها سكن غضبه وهم بالخروج متوعداً أياي بالانتقام مني في اليوم التالي ...

مضت الأيام وأبي يأخذني أنا وأخوتي كل يوم بعد الانتهـاء من مدارسنا الى العمل دون أي مقابل من أجل شراء ولو لفة لبلبـي أو فلافل، أو كعكة مع قدح من الشاي، وحتى الملابـس المدرسـية وغيرها كانت زوجة خالي هي التي تأخذ على عاتقها القيـام بتلـك المهام، فوظيفة والدي كانت مثل (ديكْ) المناطق الريفية الذي يحـب أن يترأس على الدجاجات بذلك العرف الشامخ بالوقت الذي تقوم تلك الدجاجات بوظائف الأكل ....

لم يكتمل مستوانا العلمي مثل كل الأشكال البريئـة وكتلـك الزهور التي يلتف عليها الغطاء ولم يُعرفْ لونها بعد، ولكـن كـان سبب ذلك التوقد المتأتي ليس من القراءة والكتابة بل سـمعة المعلـم الذي كان في وقتنا مثل الهرم الذي تنظر اليه حتى تشـرئب أعناقنـا فكان حقيقةً قدوة حسنة صالحة لتخريج أجيال هم ينابيع المستقبل التي

تغذي هذه الأرض الطاهرة ؟ فبالإضافة الى حبي للمدرسة كان هناك سبب آخر يسحبنا نحوها وهو أنها المكان الآمن الذي نقضي فيه بعض الساعات الجميلة والبريئة ....

من مفارقات ذلك المتجبر أنه قد سجلنا أنا وأخوتي في صف واحد على الرغم من تباين أعمارنا ؟ كانت طموحاتي بريئة وتنصب على قضاء أوقات سعيدة لم تكن في بالنا حسابات لأي طموح فقد صادرنا الأب وجعل أمامنا شيء واحد هو الهرب منه لم يكن نجاحنا له أي قيمة بالنسبة للعائلة أو الخيبة فهما سيان عنده ؟

كانت قسوته مأخوذة من ذلك السندان ومن ذلك الفحم الأسود الذي كنا نكسره الى قطع صغيرة حتى يتوقد أكثر بعد أن يشتعل أسرع ؟

مع تقادم السنين ووصولنا الى مرحلة الإعدادية بدأ المستقبل واضحاً أكثر أمامي ، كانت صرخات تلك المطارق مازالت مدوية منذ الابتدائية وحتى وصولنا الى تلك المرحلة كأنها قطرات ماء تنبع من الغيب لتنزل على أرض الواقع لتحفر بالجبل وتحفر بالذاكرة كأن عمرها آلاف السنين وكذلك تلك الكورة التي في أحد أركان الدكان من أجل صهر (القلاي) كل ذلك أدى الى تعثري بمراحل الدراسة فقد كنت أقرأ في الفترة الفاصلة بين البيت والمحل وبعدها أرجع الى البيت بما يقارب الساعة السابعة ليلاً لأنكب على وجهي في الفراش وأفيق صباحاً لأذهب الى المدرسة، كانت الذكرى جميلة تترك أثرا طيبا وحلاوة تحت اللسان لم تزل باقية وهي ليست مثل تلك الذكرى المريرة التي نحاول استبعادها من ذاكرتنا ولكنها باقية رغماً عنا ؟

(٥)

ورثت من والدي كأخوتي تلك الـذكورة المبكـرة والفحولـة الجنسية المتدفقة بالعنفوان التي يتمناها الكثير من أقراني، كل ذلك وأنا لم أتجاوز سن العاشرة فكنت أمـارس الجـنس مـع بنـات (مصلح) وهو أحد صناع والدي عندما كانت زوجته تـأتي فـي زيارة الى بيتنا وتساعد أمي في بعض الشؤون البيتية ... كنت أنا وأخي (ياسر) نصعد معهن الى سطح البيت ونلعب لعبة (الاختباء) فنختبئ أنا وإحداهن و(ياسر) والأخرى ونقوم كل منا بممارسـة العملية الجنسية معهن مقابل بعض المال البسيط الذي كنا نقتطعـه من مصروفنا ...

هكذا هي الأيام حتى وصلت السن الخامسة عشرة من عمري، لقد بدأت الآن ملامح الذكورة تنشرْ أسنانها لتقضـم اللحـم إذ إن الحليب لم يعد ليسكت صرخات الجسد من الجوع، وصـادف أن سكنت بالقرب من بيتنا إحدى العوائل وكانت من بينهم امرأة تدعى (أم رعد) استطعت أن أشم ريحها من خلال ذلك الماكياج الـذي يثير الانتباه أثناء خروجها الى السوق وفي العصر الـى مركـز المدينة، والتي كان عمرها لا يتجاوز الخامسة والعشرين...

في أحد الأيام رأيتها في سطح البيت وهي ترتدي لباساً خفيفاً، قفزت إليها وبعد حوار ليس بطويل أدعت فيه أنني صغير ولكنها ما أن رأت فحولتي حتى وافقت على طلبـي وهكـذا بـدأتُ أول ممارسة فعلية للجنس مع امرأة حقيقية... وصرت أدخل من بـاب

البيت بشكل طبيعي كوننا جيران ... وصادف أن رأيت زوجة أخيها وهي تحمل من الخصر ما يجعلها كأنها البطة بتلك العجيزة المتمايلة يميناً ويساراً ... عندها نظرتْ أليّ وقالت :

- لقد كلمتها عن فحولتك التي تتمناها الكثير من النساء.

- يعني أن وضعها يشبه وضعك ؟

- كيف لا وهل تعتقد أن هذا البيت يعيش بغير جهدنا أنا وهي ؟ نهاد ...نهاد .

لم أتمالك نفسي فأنا الآن مثل هارون الرشيد في عصره، حيث النساء تحيط بي من كل جانب وكل ما أطلبه مجاب .

نهضت من الأريكة التي كنت جالساً عليها وكانت نشوتي قد بلغت أشدها، حتى أن ثوبي ارتفع من الأمام بشكل يثير الدهشة ... عندها أتت نهاد ورأت وضعي الهائج فضحكت ؟ فمسكتها من يدها وأخذتها الى أقرب غرفة .... وهكذا صرت آتي عصراً إليهن وأمارس متعة الحياة، فأنا في هذا العمر لا تتملكني سوى هذه الرغبة التي تأسرني ...

وفي أحد الأيام سألت (أم رعد) عن زوج نهاد فقالت :

- أنه أخي (حمد) .

- ماذا يعمل ؟

- أنه مضمد في معسكر الرشيد .

- ولماذا لا يأتي أليكم ..فأنا لم أره منذ أسبوعين تقريباً ؟

- هو مضمد في قسم التشريح (معسكر الرشيد) وقد أنعكس ذلك على نفسيته من جراء العمليات المتكـررة والحالـة الصعبة للمرضى ما بين قطع يد ورجـل وغيرهـا مـن التشوهات الجسمانية والخلقية جـراء الحـروب السـابقة واللاحقة ؟

- هل تقصدين أنه مقيم في المعسكر.

- لا ... ولكنه في البدء كان يتعاطى الحبوب التي وصـفها له الطبيب النفسي ... وبعد فترة لم تعد الحبوب تعطـي مفعولها فقد أدمن عليها فحوله الطبيب الى الإبر ... ثـم ساءت حالته ... وحول الى مستشفى الأمراض النفسية .

- يعني أن نهاد الآن حرة في تصرفاتها ؟

- ضحكت (أم رعد) .... لا تخف فلك مطلق الحرية معنا .

- وماذا عن (أبو رعد) ؟

- أن وجوده من عدمه نفس الشيء فهو عسكري متطـوع ويفوق عمره عمري بخمسة عشر عام تقريباً وأدمن الحياة العسكرية. حتى عندما يأتي في إجازته لا يمارس الحـب معي إلا يوم واحد من سبعة أيام ...

- هل تقصدين أنه يعلم بذلك .

- نعم ... وإلا من أين ندفع الإيجار ومسـتلزمات الحيـاة الأخرى خاصة وقد فرض علينا الحصار الآن ؟

صرت آمناً الآن ولم أعد أهاب من يطـرق البـاب وبـذلك راودتني فكرة المبيت عندهم بالرغم من أن بيتنا لا يبعد عنهم أكثر من مترين وسطحانا متلاصقان ؟ وهكذا جلبت لهم الأكل والشراب واستأذنت أهلي بالسفر الى بغداد وأني سوف أقيم الليلة فيهـا .... وبدأ الليل ينشر ظلامه على كل مساحات الضوء المنتشر ليتحول الى ليل دامس باستثناء بعض الضـوء المراقـب مـن الأعلـى والمنبعث من الأعمدة الكهربائية .

جلسنا معاً بعد أن ارتدت كل منهما أبهى ملابسها الشفافة ... وبدء المسجل يعزف أنغام الموسيقى الشرقية ... ثـم قامـت (أم رعد) بهز أردافها والنهدين وهي تنحني أمامي لتخرج تلك الثمانية المنبعثة من نهديها ثم ترجع الى الوراء ... وبالقرب مني (نهـاد) وهي تتمايل مع الموسيقى وتنظر الى (حماتها) حتى أفرغت أكثر من قنينة (بيرة) لتسكر وتقوم لترقص معها ... وهكذا قضيت ليلة من ألف ليلة وليلة التي سمعت عنها ولم أقرأها ....

وفي أحد الأيام وأنا خارج من بيتنا صـباحا رأيـت بعـض الحاجيات مكومة في رأس الزقاق وهناك بعض العمال يصـعدون بها الى الأعلى .... فوقفت أرقب من الساكن الجديد .... وعرفت أنها (ام فائز) .... رأيتها كانت فاتنة تحمل من الجمال ما تستوقف الناظر .... وبما أن أي ساكن جديد وخاصة في الطابق الثاني من أي بناية لابد وأن يحتاج بعض التصليحات لبعض نقاط الكهربـاء وكذلك مواسير الماء وخزانه واستطعت عن طريق هذه الأشـياء وغيرها أن أدخل إليهم ...

لكن علاقتي بهم تقوم على أساس الاحترام .... ورأيت بعض الشخوص يزورونها الى البيت وكذلك تخرج هي مع أبنتها الكبيرة (زبيبة) في العصر، وهي مكتملة الزينة .... وكذلك تقف بعض السيارات أمام زقاقنا حيث تسكن هي في البناية الأولى لذلك الزقاق ثم يصعدون اليها ... عندها تيقنت أن (ام فائز) تمتهن نفس المهنة التي تمتهنها (أم رعد) وهكذا بدأت أنظر أيها نظرات عرفت هي ما أريده وبالفعل تم لي ذلك بالرغم من عدم قناعتها بسني ولكن ما أن رأت فحولتي حتى تيقنت أن لي ما يؤهلني لممارسة الحب مع أي امرأة مهما يكون عمرها واكتنازها لذلك الجسد المرصوص والمكتنز وليس المترهل ؟

في أحدى الأماسي الصيفية دار الحديث بيننا وهذه سنة تلك النساء في الابتعاد عن الأسباب التي أدت بهن الى هذا الطريق والعكس صحيح بالنسبة لنا نحن الرجال فالفضول الجنسي يدفعنا لسؤال أي منهن عن ذلك السبب ؟ وبالفعل أباحت لي قصة حياتها منذ اللحظات الأولى التي سافرت فيها الى خارج العراق وحتى عودتها وسكنها في هذه الشقة ....

تتكون أسرتها من ثلاث بنات وولد وهن (زبيبة، ثائرة، طاهرة، فائز) زوجها يعمل سائق تاكسي ، وقد كانت جميلة حتى بناتها كانت جميلات وما ينجب الطاووس غير الطواويس ؟

امتهنت البغاء لعدة أسباب لم تبح بها إلا بعد حين ؟ كان (عباس) هو الرجل الظل الذي يقوم بمتطلبات البيت وهو الحبيب

من طرف واحد وفي أحد الأيام شاهد ام فائز تركب سيارة (سوبر) فجن جنونه وأتجه نحوها ولكنه لم يستطع اللحاق بها، فأتى الى الشقة ووجد (زبيبة) وحدها فسألها عن أمها فأجابته بأنها في أحد بيوت الجيران وعندها ازدادت عصبيته عصبية فنشب شجار بينهما وانتهى بأن أنهال عليها بالضرب والشتيمة حتى إذا ما عادت الأم عصراً سمعت بما دار في الصباح... عندئذ أقامت عليه دعوى بالأمن بحجة اغتصاب أبنتها وقد ضبطت الدعوة بالشهود وكشف الدلالة ؟

بعد أن تم إلقاء القبض عليه ومن ثم إنزال التعذيب به من أجل انتزاع الاعتراف بجرمه حسب ما مثبت بالإفادة ، كانت الوساطات على قدمٍ وساق من أجل أن تتنازل (ام فائز) عن دعواها حتى تم له ذلك ؟ ومثل هذا موقف كان مع أخي (مصعب) ففي أحد الأيام صعد الى الشقة فوجد فيه رجل (خليجي) يقبلها ويضع إحدى يديه على خلفيتها، فقامت قائمة (مصعب) ولم تقعد حتى طرد ذلك الزائر وضرب زبيبة، فلقد كنت أعلم أن (ياسر) و(مصعب) يحبان كلّ منهما هذه الفتاة برغم من علمهما بسيرتها وأنها تبيع جسدها من أجل أن تعيش ؟ حتى عندما أخبرت (زبيبة) أمها بذلك لم تقم (أم فائز) بأي إجراء واكتفت بأن أخبرتني بذلك وتعهدت لها بأن ذلك لن يتكرر ؟

أما زوجها (أبو فائز) فهو شخص من الجنوب ونتيجة قربه من دول الخليج أستطاع أن يقيم في أحدها ومن ثم يوظف فيها وقد أنجب من زوجته ثلاثة أبناء هم (فائز، زبيبة، ثائرة) وفي بداياته

الأولى من الزواج وعند ذهابه الى مقر عمله، كان أبن عمه قد لاحظ جمال زوجة ابن عمه الخارق وحاول الظفر بها، إلا أنها لم تعطه مجالاً بل عنفته لأكثر من مرة ، ثم أخبرت زوجها بذلك إلا أنه لم يأخذ الموضوع على كثير من الأهمية ، لكن أبن عمه ظل يحاول وهي تتمنع وتخبر زوجها وهو لا يفعل شيء حتى وقع المحظور وكانت هذه هي البدايات الأولى لسقوط (ام فائز) في فخ الدعارة ؟

أصبحت ممارستها شبه علنية في تلك الدولة والغريب أن زوجها أعتاد مثل هذا الأمر ؟ مما أضطرها الى إجباره على ترك تلك الدولة والرجوع الى العراق وبالفعل استجاب لرغبتها وشدا الرحال الى (كربلاء) مسقط رأس الزوجة .

بدأ الزوج يعمل سائق تكسي من الصباح حتى الظهيرة ومن العصر حتى المساء ولا يعلم من شؤون البيت سوى الأكل والنوم والشرب ؟ وبما أن عمل التاكسي لا يسد متطلبات عائلة بعد أن أنجبوا بنت رابعة (طاهرة) مع إيجار الشقة ونتيجة للفراغ الكبير الذي تعيشه (ام فائز) بعد أن مارست المحظور وأصبحت مباحة لكل من هب ودب من الآخرين ما جعلها تعيد الكرة هنا مرة أخرى لتمارس مهنتها الجديدة .

أصبح دخلها المالي جيد وهي في الوقت نفسه تمارس دور الأب والأم والحامي لهذا البيت، بعد مرور أكثر من عامين أشترت بيت في مركز المدينة، وهنا حدث أمر مهم جعلها تتعسف في

انزلاقها الى القدر المحتوم فقد باع زوجها البيت ووضع قيمته في المصرف وبدأ يجلس في المقاهي ويصرف من تلك الأموال غير آبه بشيء، وأصبح إنسان اتكالي يأتي للبيت فيجد الطعام على أكمل وجه وبألذ الأنواع مثلما يجد بعض الرجال في غرفة الاستقبال ولكنه لا يسأل عنهم، فيأكل أكله ويذهب الى غرفته لينام القيلولة .

استمرت الأيام حتى بدء أمرها يفتضح وبدأت بعض الكلمات تصل الى مسمعه وهو بدوره يعكس ذلك بتلطف حتى أصبح ذلك يشكل لهُ عبأً خارجيا إضافة الى عبئه الداخلي ؟ وبعد مرور ٢٠ عام على زواجهما تم طلاقهما في الوقت الذي لم يكن عنده أي اعتراض على مجريات الأمور في الشقة بعد أن صارحته بأن الأمر الى هنا وقد انتهى كل شيء بينهم وليذهب كلّ في سبيله ولم يبدِ غضاضة فقد طلقها ورجع الى منطقته الريفية التي أتى منها .

أما هي فقد هجرت الشقة التي استأجرتها وذهبت لتسكن في بيت أهلها وهي منطقة يتجمع فيها كل المسافرين من البلدان المجاورة بالإضافة الى أنه بيت كبير ويحتوي عددا من الغرف، وكذلك لا يوجد فيه سوى أخويها واللذان يمتهنان نفس المهنة ولكن عن طريق زوجاتهم، لذلك لم تبدِ (ام فائز) تحفظها على الوضع العام والدائر في البيت .

بدأت تعمل بجدية وتوسع نطاق عملها على مستوى الشخصيات الكبيرة من ذوي المال والنفوذ وكانت تميل الى من

يعشقونها بالإضافة الى ممارسة الجنس معهم لتنتقل الى الدرجات العليا من منتسبي دوائر الدولة الحساسة من الأمن والمخابرات والاستخبارات، وكثيراً ما كانت تنقذ أخويها من براثنهم بادعائهم ممارستهم للدعارة على الغرباء ممن يقصدون العتبات المقدسة ؟ لتصل الى مرحلة فيها أن تتحكم في دائرة الأمن كلها بعد وصولها الى الشخصيات الرئيسة في العاصمة ما جعلهم يقومون بتكليفها بهذه المهمة ؟

إلا إن ذلك لم يرق للكثير من الضباط في دائرة الأمن بأن يتلقون الأوامر منها عن طريق رفعها للتقارير التي تقيمهم، مما دعاهم الى الاتفاق مع أحد أخويها لقتلها بسبب ممارستها للدعارة والترويج لها فقاموا بالتسجيل لها ومن ثم التحري والقبض عليها .

إلا إن ذلك الفعل قد أثار رد فعل عنيف من قبل الجهات العليا، وبسببه قد عنف الكثير من الضباط، في الليل وبعد أن اتفقت مع أحد الرجال الخليجين أن يزورها، وكان أخوها يتربص بها، بدأت الليلة الحمراء وسمع صوت الموسيقى الخافت، وأصوات تضارب الكؤوس، وبعد قليل هجم أخوها على الغرفة ووجدها في وضع فاضح، فأرداها قتيلة بعد عدة طعنات من سكين المطبخ، ثم أتصل أخوه الآخر بالشرطة والإسعاف، كانت بحق تمثيلية أمريكية متقنة الإخراج، وبعد حكم مخفف تحت عنوان غسل العار خرج أخوها بعد ستة أشهر وأبواق الموسيقى والدفوف أمامه كأنها حفلة عرس ؟

(٦)

بعد هزيمة ١٩٩٠ ورجوع الجيش العراقي مندحراً من (الكويت) قام الشعب بانتفاضة شعبية في شهر شعبان على كل رموز الحكومة والدولة وتم أثناء هذه الاضطرابات حرق أغلب مؤسسات الدولة كونها لم تمثل يوماً الشعب ... وكانت البداية مع رجوع الجيش من الكويت ودخوله الأراضي العراقية من البصرة .... بدأت الإشاعات تنتشر في الشوارع مثل انتشار المطر لحظة سقوطه ... لقد سقطت البصرة ... سقطت العمارة ...وصلوا ...وصلوا ... لقد سقطت بابل... وصلوا هم الآن في قضاء الهندية ؟ لم يكن في البيت أي شيء يؤكل ومثله المال .

ذهبت الى أحد الأصدقاء لأقترض منه مبلغ وقدره (٢٠٠) دينار من أجل شراء كيس طحين والذي كان سعره (٨٠) دينار فأخذت كيسين لمجهولية الآتي وغموضه ؟

في اليوم الثاني وصلت الدعاية الى مركز كربلاء القديمة، وكأن الأنصار من أحزاب المعارضة يحثون أهل الداخل للمشاركة معهم في إسقاط النظام الى أن تقدم شبح الناس الوهمي الى مراحل عدم السيطرة ففي الوقت الذي كان فيه صوت الناس يعلو كان صوت وسوط الحكومة يضعف، لقد وصل الوضع الى أن أغلب موظفي الحكومة من الداخلية والجيش جهزوا أنفسهم بملابس مدنية تفاديا لأي طارئ محتمل ؟ من أجل خلع الزي العسكري ولبس الزي المدني والانخراط بين الناس ....

وصلت الأمور الى مرحلة الذروة فقد تلاشت كل أجهـزة الدولة الأمنية والعسكرية .... أما أنا وبعض الأصدقاء ممـن لـم يتجاوز عددهم (١٠) فقد كنا نتحضر للثورة وكان ذلك بين الساعة (٢ – ٣) ظهرا لقد دخلوا الى أبواب كربلاء من هـم لا نعـرف ولكننا نتحضر فاجتمعنا في دار لأحد أقاربنا بالقرب مـن مرقـد الأمام العباس (ع) وعند ساعة الصفر خرجنـا نهتـف بسـقوط (صدام) وحكومته دون تنظيم ودون انتماء لأي حـزب باسـتثناء الوطن .

أما من ناحية السلاح فأن أغلب الجيش الذي رجـع مـن الكويت مهزوم رجع وسلاحه معه، بالإضافة الى أن كل الجـيش والشرطة والمواقع الحزبية كانت عبارة عن مشاجب فر أصحابها تاركين تلك المشاجب للناس فأنتشر بينهم السلاح كالنار بالهشـيم حتى ترى بعض المراهقين ممن يحمل (بندقية مع آر بـي كـي) وبعضهم يحمل (آر بي جي سفن) .

في باب طويريج هاجمنا أحد الدوريات وبعـد مواجهـة بسيطة فروا تاركين السيارة والسلاح فاتجهنا الى مركز المحافظة لإسقاطها كونها بقيت آخر المعاقل التي تمثـل الحكومـة، لكننـا واجهنا مقاومة عنيفة ليس لأنهـم مقـاتلون أبطـال بـل لأنهـم محاصرون من كل الجهات فلا سبيل لهم سوى الدفاع عن أنفسهم من الغل الذي يحمله الناس تجاه الحكومة، والموت الـذي بـات محتماً.

بعد مرور ثلاث ساعات من القتال العنيف وصل الحد به الى القصف بالهاونات، تم إسقاط المحافظة وإخراج السجناء من التسفيرات والذي كان خليط من الأبرياء والمستحقين لذلك السجن . حتى إذا ما جن الليل تم إسقاط المحافظة ودائرة الأمن والاستخبارات التي كانت تمثل كل معاقل الدولة باستثناء بعض المعاقل الحزبية المتواجدة في الأحياء ومنها الإسكان لقربها من بناية (فدائيو صدام) وبالفعل تمت المواجهة معهم بعد أن سمعنا النداء من الحضرة العباسية للتوجه اليها ولكن لم نستطيع إسقاطها كونهم عقائديين ومؤمنين بصدام، مما اضطرنا الى طلب دبابة من الحضرة العباسية وبالفعل تم استدعائها وجاءت لتتوسط الشارع المقابل لـ(فرع الحزب) وهكذا بدأ القصف بالقذائف عليها حتى أحدثت فجوات كبيرة في البناء ليتم إسقاط الفرع وأسر من لم يقتل ؟

سقطت كربلاء بيد أهلها وبدء البحث عن البعثيين الكبار المسؤولين عن دماء آلاف الشباب وقد تم القبض على مجموعة من المسؤولين الكبار وتقديمهم الى المحاكم الأهلية التي عقدت من قبل الثوار، ليشهد علي كل شخص أربعة شهود بجرمه ثم يعدم رميا بالرصاص ، فتعالت جثث البعثيين والعسكريين وفدائي صدام وبعض الناس بالقرب من المغتسلات على شكل أكوام من النفايات التي كل ما مضى عليها يوم ارتفعت للأعلى تعفنا وتفسخاً....

استمرت عملية تصفية الجيوب والعملاء من الموالين للحكومة والذين كانوا يضغطون على المجتمع بالتبرعات

وقطاعات الجيش الشعبي والهم الحقيقي هو الحروب الفاشلة التي تسببت بقتل الآلاف من الشباب ؟

استقرت كربلاء بعد اليوم السادس من انتفاضة آذار وبدأ الثوار يجولون بسيارات الحكومة الشوارع والأحياء وبدأت التهم على الظن تسود المجتمع بالإضافة الى الثارات الشخصية تحت عنوان (بعثي) فلا مراكز للشرطة ولا هيبة لأي شيء وكأننا في تكساس من القرن الثامن عشر حيث السلاح له الكلمة الفصل في كل النزاعات والاختلافات التي نشبت قبل الانتفاضة وبعد الانتفاضة ....

بدأت القوات الحكومية الموجودة في بغداد والتي لم تشارك بالهجوم على الكويت بالزحف نحو كربلاء والمتمثلة بالحرس الجمهوري والحرس الخاص والذي أختزنه (صدام) لمثل هذا اليوم ... بدأت تلك القوات بالظهور من الجهة الشمالية الغربية للمدينة ثم بدأت بتحريك قطعاتها بعد أن قصفت مركز المدينة لمدة يوميين وكان القصف شديدا جداً وبكل أنواع الأسلحة الثقيلة ضمنها راجمات الصواريخ مما أدى الى خروج عوائل الثوار الى المناطق الريفية في محيط كربلاء من الناحية الجنوبية ما دعا الى جلاء الجبهة الداخلية وأدى ذلك الى تقهقر البنية التحتية للمقاومة مثلما أدى ذلك القصف الى نشوب دمار كبير في الأسواق والمحلات والبيوت القديمة والتي يتجاوز عمرها أكثر من (٧٥) عام وكذلك تم قطع الماء الصالح للشرب ومياه الأنهار ونفاذ الغذاء ....

النقطة الأساسية هي أن الشارع كان يغص بالبعثيين وأجهزة الأمن الموالية للحكومة المركزية ... تم اختراق الجبهة الشمالية من ناحية الحر الكبير والحر الصغير وكذلك من جهة حي رمضان وقد استقرت تلك القوات في منطقة تدعى (نادي الطف) والذي يبعد كيلو ونصف عن الحضرة الحسينية، حيث نصب القائد المرسل من قبل بغداد (صدام كامل) معسكره هناك وبدأ بمحاكمة كل من يتم إلقاء القبض عليه بالرغم من أنه أعطى الأمان للناس بأن يرجع الجندي الى وحدته والموظف الى دائرته والطالب الى مدرسته وصاحب العمل الى عمله ولكن كانت عادة ذلك النظام أن ينكث بوعوده فمتى ما تمكن من ذلك بدأ بمحاكمات صورية مما أدى الى إعدام الآلاف من الأبرياء مثلما ملأ الكثير من سيارات النقل الخارجي (الصالون والحمل) بآلاف الشباب بحجة نقلهم الى وحداتهم ولكنهم في الحقيقة سيقوا الى (الرضوانية) ...

بدأت القوات بالزحف نحو المدينة القديمة ومنها(قوات بغداد، قوات عدنان، قوات المدينة المنورة، قوات حمورابي، قوات نبو خذ نصر) والتي يطلق عليها (أفواج الدفاع الخاصة) وهكذا بدأت المدينة بالصمود أمام هذا الزحف الهائل من القوات ذات المواصفات الخاصة ولم تستطع تلك القوات اختراقها وأوقع المجاهدون خسائر كبير في صفوف تلك القوات المختارة . لذلك لعب (صدام كامل) لعبة قذرة وهو بعد أن أسقط أوراق (منشورات) تحمل بيانات من تلك الطائرات وعمل هدنة على أن يدخل المدينة ويبسط الأمن وليرجع كلّ الى وضعه الطبيعي .

ما أن تم له ذلك وبعد أن أدارَ مدفع الدبابة نحو الخلف ودخل بها الى مركز المدينة القديمة وبمجرد وصوله الى المرقد المقدس مكان التحصين للناس الأبرياء وبعض ممن يحملون السلاح من الذين رجعوا يجرون أذيال الهزيمة والخزي بعد وساطة أكثر الدول من أجل انسحابه من (الكويت) وكذلك نتيجة خسارته في حرب (إيران) والتي حولها الى النصر عن طريق الأعلام ولا غير الأعلام حتى أدارَ مدفع الدبابة وقذف بحممها على الباب التي يصل ارتفاعها الى ستة أمتار وعرضها أكثر من ثلاثة أمتار لتتهشم ويدخل الجيش المعبأ طائفياً ليعمل مجزرة بقتل الأطفال والنساء والشيوخ وليجري الدم منهم مجرى السيل دون أن يرف لهم جفن.

هكذا سقطت المدينة وأعلنت الأحكام العرفية وبدأ أزلام النظام يمتهنون مهنة جديدة وهي (التشخيص) للذين شاركوا بتلك الانتفاضة مما تسببوا باعتقال الكثير من الشباب وإعدامهم أما المقاتلين أو (المجاهدين) كما يحبون أن يطلق عليهم فقد قتل من قتل وأسر من أسر وسيقوا الى (الرضوانية) حيث العذاب هناك ما لم ينزل الله به من سلطان .

أما الشباب الذين لم يكونوا متحصنين داخل تلك الأماكن المقدسة، فقد هربوا الى المحافظات الأخرى وصولاً الى (السماوة) ومن ثم عبروا الى (السعودية) حيث أقامت لهم معسكر تحت عنوان (معسكر رفح) والبعض الآخر أتجه الى بغداد ليختبأ تحت عباءة الحكومة؟

أما أنا فلقد لجأت الى بغداد مع أخي (ياسر) بعد أن ركبنا إحدى السيارات الخاصة بالطلبة الجامعيين لنختبئ تحت عبـــاءتهم ولأنني أحمل هوية لدائرة الكهرباء محل عملي وأخي يحمل هوية موظفين في إطارات الديوانية، وبالفعــل اســتطعنا أن نتجــاوز السيطرات التي ملأت الشوارع من محل انطــلاق الســيارة مــن منطقة (سيف سعد) وصولا الى بغداد .

(٧)

سمعت صوت أحدهم ينادي ياسين ... ياسين، فاستفقت من هــذا الكابوس اللعين، لم يكن ليخطر على بالي أن تلك الــذاكرة التعســفية مازالت تحمل كل دقائق الأمور اللعينة من الأسى والحزن على أهلي والأمكنة التي كانت شريكة حياتي ... افترشنا الأرض وأخرجنا مــا كان داخل الأكياس التي حملوها، وبدأنا نتداول الحديث أثناء العشــاء نحن الخمسة، فقد أصبح قحطان وليث البغدادي الجزء المكمــل لنــا نحن الأخوة الثلاثة ... بعد أن أتممنا العشاء ذهب أحدهم لعمل الشاي فقلت بعد أن أتممت العلبة الثانية من السجائر وفتحت العلبة الثالثة :

- أنتم تعرفون أن حرب الخليج قد أتت على عملنا، خاصةً بعد أن ساءت علاقاتنا السياسية والاقتصادية وتطبيق الحصار علينا مع كل دول الجوار والعالم، فلابد لنا من أن نبحث عن بديل غير صنع الدلال ؟

قال قحطان :

- ما رأيكم لو نعمل على شراء (كابس) فهذا النوع من الأعمال لا يتوقف أبداً .

رد ياسر بالقول :

- لو نعمل جوازات سفر ونهاجر الى خارج العراق، فهذا أفضــل الحلول؟

لكن ياسين كان يستمع للجميع ولكنه في الوقت نفسه، كان يخبئ لهم ما كان يدور في مخيلته خاصةً بعد أن خبــر الســوق بجلوســه

المستمر بن التجار وأصحاب مكاتب الاستيراد والتصدير وبعض المكاتب التي لها علاقة مع بعض من رجال الحكومة من المتنفذين فقال :

- أعتقد أنه من الأفضل أن نغير نوع عملنا مع بقائنا فيه وهو أن نعمل (صفاري الدبس) خاصة بعد أن منع استخدام السكر من الصناعات الرئيسة والثانوية وأصبح الدبس هو البديل الرئيس في الحلويات والمعجنات وكذلك بيع الدبس الى الجيش، والمعامل الأخرى التي يدخل فيها الدبس كمادة رئيسة .

هكذا بدا الشركاء في الخوف متحدين في الصمود أمام قحط المعيشة الذي بدأ يخترق كل مسامات الحياة، وبالفعل بدؤا بمشروع صنع الصفاري، فأخذ ياسين على عاتقه إشاعة الموضوع في وسط السوق، ومن ثم عبر الى جهة الرصافة حيث سوق الصفارين وعكد الجام، بأنهم يصنعون صفاري الدبس وهي تشبه بحجمها وشكلها القدر الكبير الأسود الذي يستخدم في المناسبات ولكنه أعمق بقليل مثلما فوهه أصغر، وأكثر سمكاً ...

ذهب الى التاجر الأول (أبو سعد) وأشترى منه كمية لا بأس بها من النحاس الذي على شكل ألواح نحاسية مستطيلة الشكل يتجاوز طول الواحدة منها المترين وعرضها أكثر من متر، وصنع مجموعة من النماذج وعرضها داخل الخان وبعضها خارجه ...

بعد فترة ليست بطويلة بدأت تتوافد عليه الجموع من أصحاب البساتين من ديالى والانبار وبابل ... بدأت الأمور المالية تتحسن، وبدأت إشراقة حياة جديدة تلوح بالأفق، حتى أتت ضربة الحظ

الكبرى التي غيرت مجرى حياتهم ... فقد أشترى ياسين من أحدى المؤسسات العسكرية مائة سخان كهربائي بين مستهلك وعاطل بمبلغ زهيد حداً، وأستأجر لها خان ووضعها فيها، ثم بدأ يفسخها سخانا سخانا ليخرج لفافة النحاس التي في داخلها، وأن يصنع من نحاس كل سخانين (صفرية دبس واحدة) يفوق سعرها المليون ونصف، .

عندها فقط بدأت الحياة تبتسم لهم واستطاعوا على أثر ذلك مساعدة والدهم في شراء محل في مركز المدينة، مثلما استطاعوا أن يشتروا بيت مناصفة مع والدهم، في أرقى حي من أحياء المدينة، وكذلك أشتروا سيارة (اولدز موبيل) وفتحوا لهم حساب في المصرف، وبدؤا يودعون ما فاض عن حاجتهم فيه، وفي الوقت الذي ابتسمت فيه الحياة لهم كانت كبرى الأمور تتجه الى نهاياتها، وقد أتى الوقت لوضع الحلول ومنها مشكلة أخيهم (مصعب) الذي تعلق بإحدى فتيات المنطقة ووصل حبه لها حد الجنون، فهو لا يرفض لها طلب وكان يصطحبها الى المطاعم الراقية ومحلات بيع الألبسة والذهب، ويشتري لها ما تطلبه .

وصلت الأمور من أجل أن يحصل على مراده من أن يواعدها بالزواج، وهذا يعني أنها قد سلمته نفسها، وقد شاع ذلك في المنطقة، مما أضطر (مصعب) إلى أن يأخذ بعض أصدقائه والتقدم لها رسمياً لخطبتها، والمشكلة الكبيرة في هذا الموضوع أن الجميع يعلم بما فيهم (مصعب) أن حبيبته كانت أصلاً على علاقة حميمة مع أخيه (ياسر) ولكنه طردها لأنها طلبت منه الإخلاص لها وأن لا يعرف غيرها .

في المقابل كانت وطأة الحصار قد أوهنت الحكومة الى حد الانفلات وأصبحت منعزلة عن العالم الخارجي بشكل نهائي، وكذلك الشعب فقد أصبح من الضعف بحيث يكاد يتهاوى وكانت الحكومة على إطلاع بأغلب تلك الأوضاع التي تسعر بالشعب، فما كان لها إلا أن تخلق مجموعة من الألاعيب لتلهي الناس بها ومنها تبديل دفاتر الخدمة وانتشار السيطرات الاستخباراتية وقواطع الجيش الشعبي تحت عنوان (جيش القدس) فكان لزاماً عليهم أن يستبدلوا دفاتر خدمتهم القديمة بالكارتات العسكرية الجديدة وكذلك الهويات المدنية، وبما أنهم غرباء في العاصمة ومطلوبون في محافظتهم فكان لابد لهم من أن يبحثوا عن شخص يقوم بهذه المهمة بأي مبلغ من المال.

والفاجعة الأكبر أن محاولات ياسين المستميتة لمعرفة مصير أخيه الصغير (إسماعيل) الذي أخذه الجيش في الانتفاضة الشعبانية نكاية بالأب وكسراً لإرادة هذا الشاب الذي لم يتجاوز السنة السابعة عشرة، لمجرد أنه حاول أن يرد الأذى عن أبيه، قد باءت بالفشل حتى أتى اليوم الذي جاءه أحد الضباط الكبار ممن يعملون تحت أمرة وزير التصنيع العسكري، ليطلب منه أن يعمل له أربعة صفاري درجة أولى وبالمبلغ الذي يريده .

بعد أكثر من مرة بين الذهاب والمجيء أستطاع ياسين أن يطلب منه هذا الطلب مقابل خصم كبير له من سعر الصفاري، وبعد فترة أكثر من أسبوع جاءهم بالخبر الحزين، أن كل الذين استقدموا من كربلاء سواء أكانوا أحداث أم بالغين قد تم إعدامهم ؟

أنـا

(٨)

عم الحزن الأخوة الثلاثة وباقي الأصدقاء، فبات الجميــع دون عشاء، ولم يعرف ياسين ماذا يفعل؟ أيقيم عزاء على روح أخيــه وينصب سرادق العزاء، أم يسكت وعندها تأكله الحرقة التي فــي داخله، لم تكن تلك الدموع لتخفف عنه بالرغم من أنه نــادرا مــا يبكي ولكن لأخيه الصغير (إسماعيل) حظوة من أجلهــا يــذرف دموعا تهول على حزنها أقسى القلوب.

أيخبر أهله في محافظته، وماذا سيحل حينئذ بوالدتــه، ولكــن ليس من الأدب والطاعة أن يخفي عنهم هذا السر، بدأت الأمــور تختلط عنده ولا سبيل لتلافي ذلك ؟ لم يخرجوا جميعهم الى العمل، كان لسطوة ياسين التأثير الكبير على الآخرين فبحزنه يعم الحزن وبالعكس .

عند حلول المساء توجه الجميع الى الأمام الكاظم، لم يتماسك ياسين نفسه وهو يقف أمام الشباك الفضي للأمام فأنهــار بالبكــاء والعويل واللطم على رأسه، كان يريد الآخرين أن يشاركوه فــي حزنه الذي لم تسعه نفسه، ومثله بدا أخــوه (ياســر) لكــن الأخ

(مصعب) كان أقل منهما حزناً بالرغم من أن (إسماعيل) كان أقرب سناً له من الآخرين .

وكما للنسيان سيئات، فأن له من الحسنات ما يحسد عليها، ورغم الوقع الكبير الذي ألم بهم، بفقدان أخيهم وعزاء أنفسهم دون شاخص لأخيهم مثل كل الآخرين، إلا أنه أستطاع أن يتسلل إليهم ويأخذهم الى حيث زحمة الحياة والتنافس والتزاحم مع الآخرين .

أتخذ ياسين القرار الحاسم بأنها السنة الأخيرة لهم في بغداد وكان لابد لهم أن يشدوا الرحال راجعين الى كربلاء، فكان لزاماً عليهم أن يهيئوا لهم عملاً هناك، فعمد ياسين الى استئجار أرض وبنى عليها معمل لصناعة الدبس، وفي الوقت نفسه، البحث لهم عن محل أو خان لنقل معمل صناعة الصفاري بالرغم من محدودية أدواته .

أصر ياسين على أن يختم موضوع تسريحهم من الجيش، من خلال تبديل دفاتر خدمتهم ببطاقات جديدة، إلا أن ذلك لم يأت على هواه، وهكذا بقوا مطلوبين للحكومة بكل أجهزتها، وبدأ العمل يأخذ دورته الطبيعية، مثلما بدأ موضوع الزواج يتسلل الى أنفسهم، فالرجوع الى محافظتهم والسكن مع العائلة يعني الرجوع الى المربع الأول والدخول في مشاكل مع الأب، فكيف بهم وهم متزوجون ؟

أما فيما يخص صديق ياسين الخاص والعام للجميع (قحطان) فأنه لم يكن ليفهم أي شيء مما كان يدور فيه ومن حوله رغم أنه

الجزء الفعال والرئيس الذي يؤخذ رأيه بكل شيء، فهو لم يأخذ أي مبلغ من المال حتى هذه اللحظة، سوى احتياجاته الرئيسة من الأكل والشرب والملابس، لكن ياسين كان قد وعده بأن هذه الفوضى لابد أن تنتهي، وأن تكون هناك حسابات شهرية يعرف من خلالها كل ذي حق حقه، خاصة عند رجوعهم الى كربلاء، وافتتاح معمل الدبس ؟

أما العامل الآخر وهو (حامد) له قصة لم يحن بعد وقت بوحها، فأنه أتفق مع ياسين على أن يأخذ صفريتين ويعمل هو أيضاً معمل دبس بسيط في المحافظة، ويسدد ثمنهما من أرباح المعمل ؟

ليبقى حذيفة وسيد قاسم على الهامش، فهما لم يكونا مؤثرين، مثلما لم يكونا فائضين، فالأول كان صديق (مصعب) وفي الوقت نفسه هو يمتلك ميزة تقربه من ياسين كونه قصير القامة تعس الحظ مع الدنيا، وكذلك هارب من الجيش، أما سيد قاسم فهو من ينطبق عليه المثل القائل (إن حضر لا يعد وإن غاب لا يفتقد)، ولكنه لعب دور مؤثر في الجميع من حيث لا يعلم؟ فهو بالرغم من أنه هارب، ولا يملك أي عمل يمتهنه، إلا أنه أصر على الزواج بالرغم من أنه لا يمتلك المال الذي يؤهله لذلك، فما كان من أقربائه وبعض الأصدقاء وكذلك ياسين، من أن يجمعوا له المال القليل، ومن ثم يجدوا له امرأة علوية فقيرة مثله، وتزوج في دار أهله ضمن طقوس تكاد لا تذكر، ولم يمض على زواجه السنة حتى تكلل هلال وجهه بطفل جميل أسماه أحمد، والذي جعله يعود

الى محافظته، ويعمل في محل طرشي، فما كان من هذا العمل إلا أن يستفز الجميع ؟

كيف لشخص في مقاييسهم نكرة أستطاع أن يتخذ مثل هذه الخطوات الجريئة في الزواج وفتح بيت ومن ثم العودة الى المحافظة، دون وجل أو خوف، أما حذيفة فالأمر عنده سيان، فهو أن كان في بغداد أو كربلاء فعمله أجير عند الآخرين ولكنه ظل يحلم بأنه سيصبح في يوم من الأيام صاحب العمل أياً كان حتى لو كان محل عطارة أو صاحب بسطيه لبيع لعب الأطفال ويعمل تحت أمرته حتى لو عامل واحد ؟

هكذا رجع الجميع الى كربلاء، بعد أن أكملوا بناء معمل الدبس، وأصبح قحطان مديره الفعلي، بينما كان ياسين المدير العام لمعمل الصفاري في الحي الصناعي ومعمل الدبس في أطراف كربلاء الشرقية، ولكن لم يكن الوضع ليتغير فقد بقيت الفوضى هي سيدة العمل فلا يوجد رأس مال منفصل لكلا المعملين ولم يكن ياسين ليقبل بأن يحدده أحدُ بحسابات أو يضع أمامه ممنوعات لذلك فشلت الحسابات بعد أول ثلاثة أشهر من العمل ؟

أصر مصعب على أن يبقى معمل بغداد وكذلك الشقة على وضعهما، وظل يتردد على سوق الصفارين والتجار، من أجل اقتناص أية فرصة عمل في بناء معمل دبس أو عمل صفاري لهم، بدأت الحياة تبتسم لهم، فالرجوع الى المحافظة حيث المهاد الأول والمكان الذي حفر جَمالهُ في الذاكرة لم يكن ليفارق أذهان الجميع،

وبدأ ياسين يفكر جدياً بالزواج، ولكونه يعتقد أنه يمتلك ميـزة لا يمتلكها الآخرون من حيث النباهة وحسن الاختيار، لـذلك وجـد صعوبة كبيرة في اختيار الزوجة، وكل امرأة يقـع اختيـار أمـه عليها، يذهب هو الى بعض الأصدقاء الذين يعدون بمثابة مختارين في المنطقة، ويسأل عنها فيخرج لها تاريخها كأنه محفـوظ فـي ذاكرة أمينة، ويصدف أنها قد تبسمت ابتسامة بريئة لهذا الشاب أو وقفت مع مراهق لتتهره عن اللحاق بها، كان هذا مدعاة لرفضها، حتى تناهى الى سمعه بوجود امرأة هي أقرب الى الراهبة منهـا الى المرأة الاعتيادية، ولكن أمها كانت ترفض الكثير ممن تقدموا لخطبتها؟

عند ذاك أصر ياسين على التقدم لخطبتها والزواج منها ؟ هكذا الرجال يحبون من يتعالى عليهم ويرفضون من يحترمهم وخاصة النساء عندما يجد أحدهم صعوبة في أحداهن يصر على التوصـل الى سرها وبالعكس فمن تكون متسامحة ولطيفة واجتماعيـة مـع الآخرين تكون محل شبهه وخاصة في الدوائر الحكومية والمناطق الشعبية .

زاد تمسك ياسين بها عندما علم أن أم خطيبته تعمـل علـى ماكينة خياطة منذ أكثر من عشرة أعوام والسبب أن زوجهـا قـد سقط على ظهره وأنقطع الحبل الشوكي عنـده فأصـبح طـريح الفراش، فما كان منها إلا أن أخذت على عاتقها إعالة البيت، ولـم تكتف بذلك، بل عمدت الى جعل هيبة زوجها على ما كانت عليه عندما كان يمشي ويعمل ويأمر وينهي في طول البيت وعرضـه،

فقد عمدت الى إيصال جرس بالقرب منه وبمجرد أن يضغط عليه تأتي الأم أو أي من أبنائه أليه مسرعاً حتى لا تشعره بالعجز والاستغناء عنه؟

كانت هذه النقطة مؤثرة ومهمة في تمسك ياسين بها، وربما كان يدرك أن نهايته قد تكون مثله أو قريبة من ذلك ؟ فوافق على كل شروط أهل الفتاة من بيت منعزل عن بيت أهل الولد وحريتها في الوظيفة، وكذلك الحاضر والغائب وغيرها من أمور الخطوبة والزواج ؟

(٩)

زفت أخت ياسين الكبرى (ياسمين) الى أحد الرجال البسطاء في التفكير والتصرف ورغم أنه من النسل العلوي إلا أن ذلك لم يكن له أية أهمية في منع سيطرة الزوجة عليه، فسرعان ما أصبحت أمور البيت بيدها، وأخذ الزوج على عاتقه الشؤون المنزلية كلها، وأصبح هو السيد الذي يلبي رغبات شهرزاد دون أي امتعاض ؟

أما ياسين وبعد أن تم تجهيز بيته، لأكثر من ستة أشهر بكل ما يحتاجه زفت إليه عروسه، وأصبح اليوم أكثر استقرار نفسي واجتماعي، فالنساء كنبات الثيل يمد في الأرض الى حيث ما أستطاع، وأصبح يتوادد أهل زوجته بعد أن لقي عندهم الاحترام والتقدير ومن ثم فرض شخصيته عليهم، وأصبح يتحكم في جزء من خصوصياتهم، وخاصة في زواج أبنتهم الثانية ؟

أصبح بيت الحاج ياس فارغ بعد أن خرج منه ياسين وأخته فكان لابد أن يتزوج ياسر، خاصة وأن ياسين قد أصبح أب فقد أنجبت له زوجته الطفل الأول والذي أسماه (محمد)، بدؤا البحث عن زوجة تليق به ويليق بها، وأكيد كان لرأي ياسين الحصة الأكبر في ذلك فوقع الاختيار على أحدى قريبات زوجته، وتم زفافهما .

استكان ياسر في بيت والده وأصبح نموذج للإخلاص بعد أن كان نموذج للشباب غير المستقر، ولكنه لم يكن كأخوته يمتلك

الذكورة المفرطة، بل كان يطلق عليه الرجل المثقف الذي يمتلك ذكورة كالمثقفين، وربما لهذا السبب وغيره تأخرت زوجته عن الإنجاب أكثر من سنتين، حتى أفاضت زوجته عليه بابنة جميلة مثله .

أما وقد لاحظ الجميع أن الأمور تمضي الى نهاياتها، وأن كل تكاليف الزواج تخرج من أموال معمل الدبس والصفاري فما كان من مصعب إلا أن يتزوج مثلهم، أما قحطان فقد وصل الى طريق مسدود مع الجميع وخاصة ياسين فبعد أن طالبهم بحصته عن السنوات التي عمل فيها معهم، لم يكن ليحصل منهم على حق أو باطل، فانهارت العلاقة بينهم وخرج قحطان بعد جهد لأكثر من خمسة سنوات بخفي حنين .

بكى قحطان كثيراً على تلك السنين التي شعر فيها أنه مثل حيوان أجير عند صاحبه، يعمل بأكل بطنه، ومثله مثل خيول الشرطة التي آخرها طلقت الرحمة ويا ليتهم كانوا قد أطلقوها عليه، بل أصبح أضحوكة أهله وأصدقائه المقربين من الذين نهوه عن العمل مع ياسين لأنه سيخرج بالنتيجة دون أية حصيلة ؟

ومما زاد الطين بِلة أن أصوله من الموصل، وهو يحب ابنة عمه حباً جما، فتقدم لخطبتها ليرمم خسارة السنين لكنها رفضته، ربما لقصره أو لرفضها العيش في محافظة غطاؤها العام هو التدين، وهي تعيش في مكان تسوده العلاقات الاجتماعية المتفتحة

مع الآخرين، كل ذلك جعل قحطان يتخذ القرار الفاصل في حياته وهي الهجرة خارج الوطن ؟

في ليلةٍ غبراء هاجر قحطان الى الأردن وظل لأكثر من سنة يحاول الحصول على فيزه (شنكل) الى أوربا ولكنه فشل في ذلك، فما كان منه إلا أن هاجر الى ليبيا، وعمل مدرس في أحدى مدارسها، رغم أنه قد أكمل إعدادية الصناعة ولا يمتلك بكالوريوس تربية الذي يسمح له بمزاولة هذه المهنة ؟

أما حامد فكان منذ البدء واضح في تعامله معهم، فمنذ اليوم الأول الذي تعرفوا عليه واتفقوا على أن يعمل معهم في إنتاج دلال القهوة والفناجين ومن ثم تصنيع صفاري الدبس كان يتقاضى أجره أولاً بأول، وعندما أشترى منهم صفريتين، وفتح معمل دبس كان قد تشارك مع أخيه الأكبر فيه لأن تكلفة المعمل كانت فوق إمكانيته المادية رغم بيعه سيارته البرازيلي وحُلي زوجته ؟ وعندما دار المعمل دورته الأولى كان الظرف السياسي يخبئ لهم ما لم يكن بالحسبان ؟

كان الوضع الاقتصادي قد وصل الى مرحلة من التصدع، مما يصعب على أي بلد ذي سيادة تحمله، فالأموال تعبأ بأكياس الزبالة السوداء، وقد مضى زمن حسابها بين محلات البورصة والذهب، وحل محلها الميزان، وخرجت في هذه الأثناء حيتان كبيرة تعمل على تشغيل الأموال عن طريق الربح الآجل ؟

كان أحدهم ممن شاع صيته بين الناس يدعى (سامكو) والذي أفتتح شركة تشغيل الأموال، بنسبة أرباح بدأت بـ١٠% شهرياً حتى وصلت الى ٢٠% شهرياً، فما كان من الناس إلا أن هرعوا بأموالهم الى هذه الشركات، يودعون فيها الأموال والذهب على أمل الربح السريع ودون عناء، وسرعان ما عمم ذلك الشيء على كل البيع والشراء وخاصة في السيارات والعقارات ؟

أصبح الشيء الذي قيمته اليوم مليون دينار بعد شهر أكثر من مليونيين، كان صعود الأسعار جنونياً بحيث أن بائع العقار مهما يطلب من سعر يعتقد أنه يوازي سعره الحقيقي بعد سنتين وإذا به يجد أن سعره بعد أكثر من ثلاثة أشهر يفوق كل التوقعات ؟

لم يكن ياسين بمنأى عن هذه الأوضاع المسعورة التي خلبت لب الناس، فقد سحب أموال بالآجل من أجل تشغيل المعمل في الظاهر، وكذلك من أجل تغطية تكلفة زواجه، فأخذ عشرات الأطنان من التمر كذلك، ولم يدرك أن الزمن كان يخبئ له ما يفوق حسابات أغلب الشطار ؟

في الليل بدأت بعض الإشاعات تقول أن الحصار قد فتح على العراق، وكانت مثل هذه الدعاية تخرج كل سنتين تقريباً لتوقف زمام الأسعار المسعورة التي عرت الفقير وفضحته واتخمت الغني حتى أصبح لا يتعامل بالعملة العراقية، ولا يركب نفس السيارة أكثر من شهر، بالإضافة الى الحفلات الخرافية، وسط البساتين كأنها ليالي ألف ليلة وليلة ؟

يبدو أن هذه المرة حقيقة وليست دعاية، بدا الوجوم على وجوه الناس بشكل مخيف، وخاصةً من أودعوا أموالهم عنــد شــركات تشغيل الأموال، بدأت الأسعار منذ الصباح وحركة البيع والشراء راكدة، في هذه الأثناء، ظهر بيان عاجل من على شاشة التلفــاز، يقول : دخلت الى العراق مجموعة من الشاحنات المحملة بالغذاء والدواء والمتطلبات الأخرى ؟

في حقيقة الأمر إن الأمم المتحدة استصدرت قرار في عام ١٩٩٥ يبيح للعراق بيع النفط مقابل الغذاء والدواء، بعد أن أقصل العراق بأكثر من ثلاثين قرارا من قبل مجلس الأمن نتيجة غزوه للكويت، وحرم شعبه حتى من الأقلام والكراسات تحت حجة إنها ذات استعمال مزدوج (مدني وعسكري)، ودخل حيز التنفيذ في عام ١٩٩٦؟

وهذا كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، فقد انهارت الأسواق وكأنها كرة الثلج، وخاصة المواد الغذائية وكأن الناس أقلعت عن الأكل، لتعود دورة الاقتصاد تنازلياً بسرعة البرق، مثل قلب إنسان موضوع على جهاز تخطيط القلب ينبض بصورة طبيعية بعد إجراءات ترقيعية ليتوقف عن النبض ليبدأ مؤشر الخط البياني بإطلاق صوت التنبيه ثم يهبط سريعاً ويتوقف ؟

ومن جملة ما تدهور هو أسعار التمر والدبس، فبعد أن وصل سعر التمر ليحاكي أسعار الفاكهة مثل الموز والتفاح، عاد الى أن يكون علف للحيوانات، أما الدبس فلم يعد كونه غذاء فائض عن الحاجة وعديم الاستخدام؟

بدأ من لديه مال في ذمة ياسين بالتوافد على معمل الدبس والصفاري، وكذلك الى البيت، ولم يعد لياسين من مال يدفعه للدائنين، من كل الأطراف يفي طلباتهم، وبدأ اللوم يحيط به من كل جانب وكأنه اللاعب الوحيد في الساحة، وربما هذا طبع الإنسان

العراقي، فهو باللائمة أستاذ عندما يلقيها على غيره وبالخير تواق الى أن ينسبه الى نفسه ؟

باع ياسين سيارة (الأولدز موبيل)، مثلما باع ما تبقى عنده من تمر خام وباع الدبس المصنعْ، وكل ذلك لم يسد من الدين إلا الجزء اليسير، فأجتمع الأخوة الثلاثة وقرروا بيع بيت العائلة من أجل أخذ نصف المبلغ (خاصتهم) وسداد ديون الآجل الذي بدأ أصحابه يضغطون بشكل غير طبيعي عليهم، ثم عرضوا معمل الدبس للبيع إلا أنه لم يأت بربع قيمة التكلفة، هكذا بين يوم وليلة انهارت إمبراطورية ياسين وأخوته ؟

ومثله حامد، بالرغم من أن طائلة الدين التي نابته لم تكن كبيرة، فقد توزعت بين أبيه وأخيه الأكبر الذي هو في الوقت نفسه شريكه، ولكنه كان أقسى عليه من الغرباء من الذين لهم بعض المال البسيط في ذمته، أكثر من تأنيبه وجعله السبب الرئيس في توريطه في هذا المشروع الفاشل، ناسياً، أن هذا وضع عام شمل كل العراقيين وكان وقعه كالوباء على الجميع دون استثناء مؤثرا وبالغا؟

عرض حامد المعمل للبيع بأي ثمن كان، بعد أن تنصل أخوه من المشكلة وراح ينفث غضبه بين أقاربهم وأصدقائه عما فعل به أخوه الأصغر ؟ ولكن من يمتلك الجرأة في إخراج أي مبلغ باستثناء الضروري لإدامة الحياة، ثم قفل راجعاً الى بغداد في كنف ليل مظلم، مهزوماً حزيناً مهموماً يحمل آلام كل الشباب

المجروحين من الذين غدر بهم الزمان والحصار والقدر، من الذين غدر بهم العراق ؟

فكر حامد جدياً بالهجرة خارج العراق، ولكنه لم يكن يمتلك المال الكافي، وبما أنه لا يستطيع السفر وحده، كونه قد تزوج من امرأة، كانت الوحيدة لأمها، وأنجب منها، فتاتين، مع وجود أخت أم زوجته، والأمر من ذلك كله أن أخت زوجته قد فرت في ليلة ظلماء مع زوجها من العراق الى ألمانيا، فلم يبق في الدار سوى رجلٍ واحدٍ ؟ وهذا ما عقد الأمور أكثر، فانزوى داخل البيت الذي يقيم فيه مع زوجته ؟ لا يكلم أحدا لأكثر من ثلاثة أشهر ؟ لكن فكرة السفر لم تنفك ترافقه أينما ذهب، وظل يبحث عن طريقة يهاجر بها ؟

بدأت تنتشر أخبار بين الناس أن فلانا قتل فلانا لأنه رفض سداد دينه، وأن فلانا أعتقل لأن بذمته أكثر من نصف مليار دينار لأشخاص متنفذين، وأن فلانا استولى على بيت فلان، وظهرت حكايات أغرب من حكايات ألف ليلة وليلة، يتداولها الناس فيما بينهم ؟

امتلأت السجون بشخصيات كانت قبل هذا اليوم، تكلم الآخرين من خلف حجاب، مثلما امتلأت بمغفلين كانوا وسطاء بين أصحاب المال والشركات، وأنتعش شيوخ العشائر وأصبحت أبواب مضايفهم مشرعة تفصل بين هذا وتأخذ الحق من ذاك، وتوصلت بعض المناطق الغربية وبغداد لحل يرضي جميع الأطراف، هو

إرجاع ٢٥% من قيمة الدين للدائن، وكان هذا الحل قد حفظ ماء وجه الكثيرين، وأعاد للآخرين حقوقهم ضمن الظرف القائم ؟

أبتعد ياسين وأخوته عن مسرح الحياة، فقد لقوا نكسة كبيرة جعلتهم لقمة سائغة للأب ومحل تهكم ولوم كبير من قبله، أما الآخرون فكانوا يشاركون ياسين وأخوته تلك النائبة التي حلت بالمجتمع وغيرت أخلاقه، فقد طفحت شرائح كانت مغمورة في قاعه الى مصاف الأعيان والسبب أن الحظ قد حالفها ؟

فقد صادف أن باع (الحاج معجون العربنجي) وهو من بسطاء المجتمع، برشقه مع الحصان بمبلغ يفوق المليونين بقليل قبل تلك الدعاية، وآخر باع تلفزيون يدعى (السيد) وهو بالأصل قيثارة بمبلغ نصف مليون دينار، وباع شخص آخر مدفأة صالون نفطية بمبلغ ربع مليون دينار، وهكذا من كان في الأمس يبيع حاجات بيته من أجل لقمة العيش، أصبح اليوم هو السيد، الذي يمتلك من المال ما يؤهله لشراء بيت أو سيارة وحتى بستان في مركز كربلاء القديمة .

أصبحت كل الأبواب مغلقة أمام ياسين وأخوته، فقد كانت الحراب التي طعنته من الداخل تنفث عليه السم الزعاف، فلا يستطيع العودة الى بغداد ولا يستطيع العودة من جديد لتأسيس أي عمل آخر، فعزم على الهجرة الى سوريا، بعد وعود حصل عليها من بعض الأصدقاء القدامى، من أن عمل الدلال في سوريا رائج وممكن أن يعيد نشاطه من جديد ؟

المشكلة الحقيقية التي تواجهه هو وأخوه ياسر أنهما هاربان من الخدمة العسكرية، وإخراج جواز سفر لهما كان لابد أن يأتيا بصحة صدور تسريحهم من دائرة التجنيد ومن ثم إخراج جواز السفر الذي تأخذ عليه الحكومة رسوم بقيمة (٤٥٠) ألف دينار عراقي، بدأت مسيرة التسريح الرسمي ومن ثم الجواز وكأنها رحلة عمر من الأعصاب واستنزاف ما تبقى من المال الذي أتاهم من بيع البيت، وبعد أكثر من سنة، أصدرت دائرة الجوازات العامة في كربلاء، جوازين باسم ياسين وآخر باسم ياسر، وعندها انطلقا في ليلةٍ معتمة الى الحدود دون وداع أي شخص، باستثناء زوجاتهم ؟

رفض مصعب السفر معهم، وفضل البقاء في محافظته، على أمل الولوج في عمل جديد، يمكن من خلاله، أن ينفذ الى الحياة مرة أخرى، اشترى سيارة قديمة (داتسن) وعمل عليها كسائق تاكسي، وكانت تأخذ أكثر من نصف الوارد كتصليح وإدامة لها، فكانت السمة الغالبة على مصعب هي الملابس الوسخة، واللحية التي لم تعرف طريق موس الحلاقة إلا كل ثلاثة أسابيع وربما شهر، وضياع يومه بين العمل والتصليح، حتى اتخذ القرار الحاسم ببيعها، واستئجار محل في مجمع الدهان، لبيع كماليات النساء من العطور، ومتطلبات الماكياج الأخرى .

لم تكن الأعمال لتسترد عافيتها بعد تلك النكسة التي حلت بالوضع العام العراقي، وبعد مرور أكثر من ستة أشهر، عاد التضخم من جديد، وبدأت الأسعار تتصاعد بشكل جنوني، فما كان

من الحكومة ومن أجل اللحاق بهذا التضخم وإيجاد عملة موازية للأسعار الجديدة، فعمدت الى طبع عملة جديدة، عالية القيمة في السوق العراقي فقط، أما عند الحدود فلم تُعدْ أكثر من كونها أوراق ملونة أو تذكار يحمل صورة الرئيس القائد ؟

في هذه الأثناء شاع التزوير بالعملة، بعد أن اختفت العملات المعدنية الصغيرة من الأسواق والبنوك، مثلما شاعت الرشوة في دوائر الدولة، حتى شرعها بعض ممن يشتغل في مجال الدين، وذهب الى أبعد من ذلك البعض الآخر في (أن الصدقة تجوز على الموظف) هكذا كانت الأمور تتجه الى المجهول ؟ مثلما شاعت البضاعة الفاسدة والمزيفة في الأسواق، ولم تعد بضاعة مصعب أكثر من كونها إكسسوارات زجاجية معبئة بماء ملون، أما أدوات (الماكياج) فكانت صناعة محلية فاسدة بامتياز ؟ اختفت الطبقة المتوسطة من المجتمع، وشاعت المقاهي بشكل كبير، وامتلأت بالعاطلين عن العمل ؟

الشيء الوحيد الذي لا تستغني عنه كل الشعوب بل يكاد يكون السبب الرئيس للحروب العالمية هو الغذاء، وصادف أن جاء أحد أصدقاء مصعب من الذين يثق بهم ثقة عمياء واقترح عليه أن يشاركه في معمل لإنتاج أجهزة تنقيط لسقي المزروعات في الحي الصناعي، لم يكن أمامه إلا أن يوافق، وفي غضون ثلاثة أيام أرجع البضاعة لبعض تجارها وباع الأخرى بنصف السعر، ليصبح جاهزا لمزاولة العمل الجديد بعد أن دخل فيه مناصفةً برأس المال .

أما تصريف تلك الأجهزة التي يصنعها في المعمل فكان على عاتق شريكه الذي يمتلك مكتبا لبيع الفواكه والخضروات، لم يدم

شهر العسل أكثر من شهرين، حتى بدأ الخريف يطرق الأبواب ويعلن تساقط أوراق الشجر، وهبوب بعض نسائم البرد على الآخرين ؟

عاد مصعب بنصف المال الذي دخل به أول مرة، وأقفلت أبواب العمل كلها أمامه، فما كان منه إلا أن عمل أجيرا عند أحد أصدقائه، وأتجه الى الدين، وأصبح ملازماً لبعض أولياء الله الصالحين، وترك الحياة وملذاتها، مثلما ترك الأصدقاء، بعد أن أعتبر شركته مع صديقه خيانة عظمى، راجع على أثرها كل حساباته الماضية والآتية ؟

لم تكن أخبار ياسين وأخيه ياسر لتسر السامع، فقد مكر بهم من وعدهم خيراً في سوريا، وأرسلوا الى أخيهم يطلبون المال، فما كان منه إلا أن باع شقة بغداد والمعمل، وأرسل بمبلغهما كله إليهم ؟

أما إعالة زوجاتهم والأبناء فقد كانت مناطة بالأب، الذي وجد في ذلك بعض الإرضاء لغروره وإعادة السيطرة من جديد على البيت بعد أن سرق جزءا منها إذا لم نقل كلها أبنه الأكبر ياسين ؟؟ وظل هذا الأب يتبجح برجاحة عقله، أمام زوجته في البيت وكذلك زوجات أبنائه، وأمام أقربائه ومن ناصر أبنه ياسين عليه في محله، الذي تحول الى شبه مقهى يجمع فيه بعض أصدقائه القدامى، ويشرح لهم بطولاته وفشل أبنائه، ومن ثم هربهم الى سوريا أما أبنه مصعب، فقد اعتكف في الحضرة العباسية، ليتدروش في ملكوت الله ؟

(١١)

اكتفى حذيفة بأن يكون شاهدا على الأحداث، ولكن تلك الشهادة كانت بمثابة قارب النجاة، فهو لم يدخل في عمل مع أحد ولم يعمل عند أحد، وكان كل ما يقوم به، هو الوقوف في سنتر المدينة القديمة ينفث ألمه من خلال دخان سجائره ؟

أما حامد فقد اشتغل عند أحد أصدقائه الجدد من الذين تعرف عليهم في المنطقة عندما كان يخرج الى باحة الدار عندما يجن الليل، وبعض الأحيان الى جادة الشارع الفرعي، ثم يعود راجعاً من جديد ؟ في أحد الليالي عرض صديقه عليه العمل عنده ضمن أجر معلوم، لم يكن أمام حامد من عرض أفضل من ذلك، فوافق عليه، وبدأ يخرج للحياة من جديد ؟

حامد شاب جميل متوسط الطول، يمتلك عيون زرقاء وشعر مائل للصفرة، حنطاوي البشرة، مملوء الجثة، مثلما يمتلك كاريزما يفتقدها الآخرون، مرح مع أصدقائه، محبوب من قبل النساء، جريء في طروحاته، لكنه سيء الحظ في العمل، لأن القدر ابتلاه بعائلة كلها ذكور، فكانوا يخافون عليه من الآخرين، لذلك تنقل بين أعمال أصحابه الذين هم أصدقاء لإخوانه، وصادف أن كل تلك الأعمال تميل الى القوة، ومنها التعامل مع مكائن الخراطة والبريس، وغيرها من الأعمال الثقيلة ؟

عندما أشتغل مع (أبو نورس) في محله لبيع الحقائب النسائية والواقع في شارع النهر الموازي لشارع الرشيد، كان

بالنسبة له عمل غريب، يميل الى الرقة والذوق والإقناع، خاصة وأن تعامله مع شخوص كلهم يتعاملون مع النساء، مثلما يتعامل بالبيع المباشر مع بعض النساء من اللاتي يشتغلن في البنك المركزي العراقي .

بدا حامد مندفعا للحياة أكثر من ذي قبل، وتغير حال المحل، مثلما تغير حال المعمل الذي ينتج تلك الحقائب، واستطاع في غضون فترة لا تتعدى السنة، أن يستعيد بعض الديون التي اعتقدها صاحب المحل ميتة من بعض الزبائن من أصحاب المحلات، مثلما أصبح دخل المحل أضعاف مضاعفة عما كان يدخله سابقاً ؟

بدت أوضاع المجتمع في تناقض عجيب، فحيث تجد أن الفاقة قد انتشرت بين الناس بشكل عجيب وغريب، تجد بالقرب من ذلك، وقد ازدهرت مطاعم الدرجة الأولى، ومثلها السيارات الفخمة والقصور العجيبة، خاصةً وإن القرارات الأممية ما زالت تشدد الخناق على المجتمع العراقي ظناً منها أنها تخنق الحكومة، فما كان من الأخيرة إلا أن ترد عليها، ببناء القصور الرئاسية، وإخراج الجنائز على شكل قوافل من الأطفال الأبرياء، الذين ماتوا بسبب الحصار ؟

في هذه الأثناء بدأ يتسرب الى بعض رجالات الأمن والحكومة بالعموم وبعض الأثرياء والأعيان، جهاز استقبال يدعى (ريسيفر) أو الستلايت، وسرعان ما شاع عند بعض أقوياء الإرادة

والفضول، فكان الناس يتحدثون عن الأساطيل العابرة للقارات والمحيطات من أجل ضرب العراق ؟

مثلما بدأت بعض دول الجوار بالتعاطف مع الشعب العراقي، عن طريق إدخال بعض المواد المستوردة، والسماح لهم بالسفر الى بلدانهم، وهذا ما شجع (أبو نورس) الى السفر الى دولة الأمارات العربية، وجلب بعض الكتلوكات الأجنبية، وبدأ معمله يصنع النماذج التي يختارها حامد، ثم بدأ حامد هو من يسافر الى الأمارات العربية ويرسل الكتلوكات، ومن ثم بدأ يرسل لهم بعض الحقائب المستوردة (حسب الطلب) .

بدأ حامد خطواته الأولى على سلم التجارة، وتحول من أجير الى صاحب حصة قيمتها الربع في الأرباح ثم في المحل، وسرعان ما شاعت سمعته بين أصحاب المعامل الأخرى وكذلك أصحاب المحلات الراقية في الكرادة والمنصور والمناطق الأخرى، حتى جاءت الفرصة المناسبة عندما اشترى أحد محلات السوق لصديق كان قد حصل على فرصة لم الشمل من أهله الذين هاجروا الى أوربا ؟

ما أنفك أخوه يرسل بعض الرسائل عن طريق أهله وأقربائه لسد دين المشروع القديم، والذي تسبب في خسارة كبيرة له، لكن تلك الجراح لم تكن لتغادر حامد فهي سبب أرقه المستمر، مثلما لم يكن مشروع الهجرة ليغادره أيضاً، لكنه كان ينتظر الوقت المناسب، في الشروع في تسديد كل ديونه، بعد أن يكّون بنية

تحتية وحقيقية بدلا من أن يعمل أجيرا عند الآخرين، بالإضافة الى أن الهجرة تحتاج المال الكثير له ولعائلته .

في بداية الألفية الثالثة، أقترح حامد عليّ مع صديق آخر يدعى (محسن) السفر الى سوريا، للزيارة والاستجمام وفي الوقت نفسه الحصول على كتلوكات جديدة، وكذلك الالتقاء بياسين وياسر بعد أن انقطعت أخبارهم نهائياً عن الجميع ؟

شددنا الرحال الى سوريا، بعد إجراءات بيروقراطية وتعسفية كثيرة من قبل الدوائر الحكومية، حتى إذا ما قطعت السيارة المسافة بأكثر من ست ساعات في الطريق الخارجي، حيث الصحراء المقفرة، والتيه العجيب في صحراء الموت والتي لا تمتلك من مقومات الحياة أي شيء، وصلنا الى المخفر الحدودي، وكعادة الفساد الإداري والمالي لم يكن ليغفل مكان، وخاصة في الأماكن البعيدة عن السيطرة الحكومية المركزية ؟

بعد تأخير متعمد في الكمارك من أجل تأشيرة الخروج، جمع سائق الباص وبعد الاتفاق مع الركاب مبلغا معينا من المال، غادرنا الحدود العراقية، لنصل الى الحدود السورية كان الليل قد جن علينا وطرد آخر ومضات النهار، ولتغوص الشمس في عالم آخر بعيدا حتى عن أحلامنا، ولكنه الأمل يراود الكثيرين بالهجرة، فما كان من السائق إلا أن قام بنفس ما قام به عند الكمارك العراقية؟

دخلنا بلاد الشام، تلك الأرض التي عندما نظر اليها رسول الله تبسم، ظلت هذه الحكاية العالقة في ذهن كل من يتجه اليها، كانت الساعة في حدود الثانية عشر ليلاً، ومن ثم توجهنا الى محافظة ريف دمشق، لم نطل البحث عن سكن، وسرعان ما رحنا في نوم عميق عند أول بناية تؤجر شققا للعراقيين ؟

في صباح اليوم التالي، أول شيء فكرنا به، هو زيارة السيدة زبيب تلك المرأة التي طالما رويت عنها المواقف الشجاعة في معركة الطف التي حدثت في عام ٦١هـ، بعد أكثر من ساعة في ضريحها الذي يعج بمختلف الجنسيات، خرجنا وقد نضبت الدموع من العيون، واللهفة والشوق الذي ضمر في داخلنا مذ كنا أطفالا نسمع من بعض ممن زارها عن ضريحها، وجمال المدينة وأهلها .

ركبنا باصا صغيرا الى الشام، نروم زيارة مرقد السيدة رقية والجامع الأموي، أول شيء جذب انتباهنا هو وجود صحون الاستقبال (الريسيفر) فوق بعض الأكواخ المتناثرة بالقرب من السيدة زبيب، وهذا يعني أن شقتنا تحتوي أيضاً على هذا الجهاز وهذا يعني أنه يمكننا أن نشاهد فضائية الجزيرة، التي كانت مثل السر الذي يتداول بين الناس بالخفاء، وصلنا سوق الحميدية والذي كان يعج بالناس، كأنهم في عيد رأس السنة أو أي من الأعياد الأخرى ؟

كانت ذاكرتنا عذراء بالنسبة لما نراه في الشام، بعد أن تعودت الخراب الذي عم البلاد وخاصة في بغداد، وكل ما يقع عليه نظرنا

بمثابة اكتشاف جديد يضاف الى الذاكرة، فلم ينفك حامد من الفرجة على التحفيات النحاسية المعروضة في المحلات التي يتجاوز طولها أكثر من عشرة أمتار وعرضها الذي لا يقل عن خمسة أمتار، حتى أسحبه منها عنوة، وهو يشيد بها والحرفية التي صنعتها، ويعيب على ما كانوا ينتجوه في بغداد من دلال وفناجين، حيث الرقش والتجريح الدقيق الذي ينحت على النحاس الخام حتى يخرج بهذه الهيئة .

أما أنا ومحسن فكنا نهتم بالتراث والآثار، وخاصةً الحمامات الشرقية التي تشتهر بها سوريا، كونها درة الشرق، وأكثر ما يعجبني بتلك الحمامات هي النافورات (الشذر وان) التي تتوسطها بعض النبتات الدائمة الخضرة، ولم ينفك قبقاب (غوار) في مسلسل (حمام الهنا) من أن يغادر ذاكرتي مذ كنت فتى .

وصلنا مرقد السيدة رقية، وكان يعج أيضاً بمختلف الجنسيات من المسلمين وبعض الأجانب من الذين جذبهم الفضول الى هذا المرقد، وبالقرب منه دخلنا الى الجامع الأموي وكان لهذا الجامع من هيبة وجمال الفن الإسلامي ما يخلب العقل ؟ لم نبق كثيراً في سوق الحميدية فقد كان بنا شوق كبير لمعرفة أخبار ياسين وأخيه ياسر، وكنا قد أتصلنا بهما سابقاً من العراق، وها نحن نعيد الاتصال بهم هنا في سوريا ؟

استقبلونا بالأحضان داخل محل كبير يقع على شارع عام ما بين ريف دمشق والشام، كان المكان أقرب الى المنفى منه الى

محل لكسب الرزق والعيش بسلام مع الآخرين، فقد كانت واجهته عبارة عن باب صغيرة للدخول والخروج، لا يوجد فيه منفذ على الخارج سوى ساحبة هواء تسحب دخان كورة النـــار والســـجائر وأصوات المطارق واللغو الذي يدور بينهم، وكـــذلك هـــو محـــل سكنهم وأكلهم وغير ذلك ؟

بعد أن تناولنا الغذاء دار حديث مع حامد كونه أقرب لهم فـــي اختصاصهم وظل يحدثهم عن الانبهار الذي هو فيـــه لمـــا لهـــذه الصنعة عندهم من تقدم، وبادله ياسين ذلك بفتور معللاً ذلك بـــأن دول الخليج هي التي تحرك السوق هنا، ولولا الحصار المفروض على العراق لأستطاع هو وأقرانه أن ينتجوا أفضل من ذلك بكثير، مثلما راح يسهب بإنجازاته الكبيرة التي ظلت محل حديث لكبـــار التجار وأصحاب المهن في اختصاصهم، وهو الآن مرجع للكثيرين منهم ومستشار يحول دون المعوقات التي تعترض طريقهم، أمـــا ياسر فكان يردد ما يقوله ياسين دون زيادة أو نقصان كأنه ببغـــاء ولم يكن ذلك بغريب علينا فالجميع يعرف أن ياسر صدى وظـــل لأخيه الأكبر ؟

في اليوم التالي صادف الجمعة، وقد خرجنا جميعاً الى الشـــام نتجول ونأخذ الصور لبعض ما يعجبنا من مناظر، وقـــد خبرهـــا ياسين وأخوه، فذهبنا الى سوق البزارة (الحبوب) ثم الـــى حمـــام عمومي يبلغ عمره أكثر من ٥٠٠ سنة، إذ أن أغلب البناء السوري من الحجر الأسود والأبيض، وكانت القرارات فيما يخص التراث وخاصة الأبنية القديمة تحتاج الى موافقات عديدة وكشوفات كثيرة

وكلها في النهاية تبوء بالفشل في محاولة هدم وإعادة بناء البيت أو المنشأ من جديد، ثم ذهبنا الى جبل قاسيون، وبعض المراقد المقدسة لزوجات النبي محمد (ص) وعدنا أدراجنا من جديد كلّ الى سكنه .

هكذا أنقضى أسبوع بين المراقد المقدسة التي تنتشر على جغرافية الشام وأحيائها وبين الضيافة عند ياسين والتداول في شؤون الوضع القائم في سوريا ومقارنته بالعراق، في هذه الأثناء كان محسن يجري اتصالاته مع صديق له في لبنان كي يلتحق معه في العمل الذي دبره له قبل مجيئنا من العراق، وهكذا غادرنا محسن الى لبنان، في بداية الأسبوع الثاني كنا قد نوينا الذهاب الى اللاذقية وبعض المناطق التي تطل على البحر الأبيض المتوسط، وقررنا أخذ ياسين وياسر معنا، وعندما وصلنا إليهم كانت الوجوه واجمة، لقد جاءهم اتصال من العراق يقول أن الحاج ياس قد دخل غرفة الإنعاش وهو في حالة حرجة .

(١٢)

في ٢٠٠٣/٤/٩ تهاوى النظام مثل قطع الدومينو وربما مثل بيت الرمل، فقد تبخر الجيش وكل الأجهزة الأمنية القمعية، وأصاب البلد الهرج والمرج واجتاحته أجهزة استخبارات أغلب دول العالم فقد أصبح العراق دولة مفتوحة على مصراعيها، عمت الحرائق كل المباني الحكومية والمؤسسات الرسمية، مثلما عم الفرهود والقتل عم الهرج والمرج، وكأن أهل العراق عادوا الى سابق عهدهم في عقد الأربعينيات، عندما هجموا على أحياء اليهود في بغداد وعاثوا في الأرض فسادا، وتكرر ذلك في بداية عقد التسعينات، ويعود اليوم من جديد ولكن بطريقة أشرس وأقسى وكأنهم قطيع من الضباع يفترسون حملا وديعا، ثم عين حاكم عسكري (بول بريمر) ليدير أمور البلاد ومن تحته أحزاب المعارضة التي تشكلت في دول الجوار ؟

يبدو أن سوء الطالع يقف خلف الباب، فكلما أجتمع بعض الأصدقاء، كانت المصيبة تنتظرهم، والأخبار السيئة تتصدر أحاديثهم، فلم يكن من ياسين إلا أن قرر العودة الى العراق معنا، تاركاً ياسر يصفي الأمور المتعلقة ويلحق بنا في غضون أسبوع، وقد تناهى الى أسماع حامد أن أمورهم سيئة في سوريا، ولم يكن من عمل لياسين وياسر إلا القوت الذي يقتاتون عليه للمعيشة وإيجار المحل، وبالتالي فأن دخول أبيهم الإنعاش وحتى موته لم تكن إلا ورقة إنقاذ للأوضاع المزرية التي كانا يعيشانها، بالإضافة الى زوال السبب الرئيس وهو سقوط النظام البعثي، الذي أدخل

الناس في دوامة كبيرة، بين السقوط والاحتلال، الذي أعـاد الـى أذهان البعض إشكالية الاحتلال المغولي لبغداد في عام ٦٥٦هـ (بين حاكم مسلم ظالم وحاكم غير مسلم ولكن عادل) ؟

دخل ياسين غرفة الإنعاش في المستشفى الحسيني، وجد أبـاه يلفظ أنفاسه الأخيرة، بكى الاثنان ووقع ياسين على صـدر أبيـه، ومثله الأب وكأن صحوة موت قد انتابته فأحتضن أبنه ياسين، وما بين الموت وجمع العائلة أتحد الجميع في النحيب والبكاء، ثم قـال الأب أمام الجميع:

- أبني ياسين لقد أسأت لك كثيراً، فهل لك من عذر لي ؟
- أبي العزيز لا تهتم فلم يكن في بالي يوما شيء من هـذا القبيل وما يحصل بيننا هو شيء طبيعي يحصل في كـل البيوت وفي أحسن العائلات .

وهل تفيد الأعذار من رجل قد خسر الحـرب ووقـع وثيقـة استسلام، وهل لو عادت الأمور الى سابق عهدها، تغير أسـلوب كل أب قاسٍ وجاحد لنعمة الأبناء ووفاء الزوجة، إزاء أبنائه لأعاد حساباته، وبدأ من جديد (قلت ذلك في سري)؟

بعد الأيام الثلاثة المقامة عـزاءاً علـى روح المرحـوم، أجتمع مصعب مع أخيه ياسين يتداولان الأمور المستجدة في إدارة العائلة، وما سوف تؤول إليه الأمور، وكان كل منهما يروم بيـع المحل الذي تركه أبوهم خلفه مع البيت، ليعود عليهم بمبلغ جيـد جداً ممكن أن يغير حياتهم ويعيد لهم هيبتهم، بعد يـومين ألتحـق

ياسر بهم، بعد أن قام بتصفية المحل وبيع النحاس المتبقي وتسديد الديون المتعلقة وما بقى منها، كفله أحد العراقيين المقيمين في سوريا على أن يسددها بعد فترة وجيزة ؟

أين ما حل ياسين وأخوته حل الدَين والآجل، ومن ثم الدخول في مشاكل ليس لها من أول ولا آخر، كذلك زارهم أبن خالتهم في اليوم السابع، وتعذر لقائهم في مثل هذه الظروف التعسة، وتمنى لهم حياة جديدة، وهو في ذلك كان يغمزهم للدين القديم الذي ظل في بطنهم لأكثر من خمس سنوات ؟

أستقر الرأي النهائي على بيع المحل، وتم عرضه على الملأ وبعد أكثر من ثلاثة أشهر تم بيعه، وقد أتى كلاً منهم مبلغ جيد، فأخذ مصعب مبلغه، أما ياسين وياسر وأمه وأخته، فقد جمع مبلغهم كله معاً، وفتح فيه الأخوان مشروع لبيع ألواح البلاستك ذات المنشأ التركي والصيني والسقوف الثانوية، باعتبارهما القيمان على العائلة وياسين في الوقت نفسه شريك ياسر في كل شيء؟

لم يكن ياسين ليستكين في عمل بسيط مثل كل البسطاء بل كان يطمح دائماً الى الأعمال الكبيرة والمشاريع الضخمة، فأعاد وفي غضون ستة أشهر، علاقاته مع بعض المؤسسات والشركات من التي كان يتعامل معها سابقاً أيام معامل الصفاري والقبب الذهبية لبعض القصور الرئاسية، والمنتجعات السياحية (حبانية والثرثار والسدة) التي أقامها القائد الضرورة في بيوته

الموزعة على أغلب المحافظات العراقية كبابل وصلاح الدين والأنبار...الخ .

ورغم ادعائه هجر الحياة، وخاصة بعد أن أصابه المرض السكري، ونزوحه نحو الدين والآخرة وأن مصير الإنسان هو الموت والفناء، إلا أنه كان يطبق حكمة دينية تقول (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان)، وهكذا أعاد الحياة لعلاقات قد أضرته سابقاً وستضره لاحقاً، ولكن من يستطيع أن يقول لياسين أنك تسير في الاتجاه الخاطئ ؟

أتفق مع رئيس أحدى المؤسسات الحكومية على توريد أخشاب بقيمة (١٥٠) مليون دينار، وكان هذا الاتفاق شفهيا باعتبار أنه صادر من مدير عام يمثل هذه المؤسسة وهو بالتالي أشبه بالعقد ؟ بدأ ياسين برحلة الى إيران لتقصي الأسعار ومن ثم الى تركيا، وعاد الى العراق وبدأ يبحث عن تجار كبار في هذا المجال فذهب الى منطقة الشيخ عمر، فنصحوه بالذهاب الى محافظة النجف لأن فيها تجار هم أشبه بالحيتان في هذا المجال وبإمكانهم تجهيزه بالكميات المطلوبة ؟

أما حامد فقد عاد ببعض الكتلوكات، والحقائب اليدوية، وجنى منها بعض الأرباح البسيطة، وكان من حسن الطالع لديه أن (أبو نورس) قد أقترح عليه إقامة معمل مشترك بينهم، فقد حصل على فيزه تؤهله للسفر الى الصين، وبالتالي فإن المواد الخام ستكون في متناولهم وعندهم الكتلوكات ولكن لابد من أحد يدير

المعمل والمحلات، وافق حامد على هذا المشروع، لكنه لم يكن لتغادر فكرة الهجرة عنه نهائياً، وصادف أن قرأ وهو يتمشى عصراً في شارع فلسطين، إعلان شركة سياحية بإقامة رحلات الى دول الجوار، صعد إليها وجد امرأة صاحبة الشركة، تكلم معها بصراحة بأنه يريد الهجرة الى أوربا، وافقت صاحبة الشركة على ذلك ولكنها لم تعطه موعدا محددا، بل كانت الفترة مفتوحة مقابل عشرين ألف دولار، وافق على ذلك وفي اليوم التالي جاءها بالمبلغ دون أن يأخذ منها حتى وصل استلام أو شيء يثبت بأنه صاحب المبلغ المودع لديها وعندما أنبتَهُ على ذلك، واعتبرته تصرف جنوني أجاب :

- وما جنينا من الحرص والتثبت من الآخرين في تعاملاتنا، وفي غفلة من الزمن تأتيك صفعة تضيع الأول والآخر ... أنسيت نزلة ١٩٩٦ وكذلك ١٩٩٨، والتي أنزلت أناس الى القاع بعد أن اعتقدوا أنهم قد حصنوا أنفسهم ضد غدر الزمان، وآخرون هم مغفلون بل أكثر من ذلك وفي غفلة من الزمان أصبح الصبح عليهم وإذا بهم يمتلكون الأموال والأطيان ؟ أرجوك ... أن استخدام العقل أكثر الأحيان فاشل بل ومتعب أيضاً، أترك الأمور على الغارب وكيف ما تأتي فأهلا بها ؟

أي عقل هذا الذي يترك الأمور على الغارب، ولكن ألم يقل أن تصرفه هذا لا يخضع الى العقل ولكنه تصرف جنوني، وضع أسوأ الاحتمالات هو أن تأخذ صاحبة الشركة المبلغ وتهرب

ويكتشف بعدها أنها شركة وهمية لا أساس لها من الصحة، ما يعني أنه توقع أقصى الاحتمالات وهي خسارة المبلغ وبالتالي فهو ينام قرير العين، بعد أن أخرج ذلك المبلغ من حساباته، وبدأ يعمل من جديد ؟

شاع جهاز الستلايت والموبايل، وتحسنت أوضاع الموظفين بعد أن تضاعفت رواتبهم الى أكثر من ١٠٠ مرة، أخذت الأمور تتطور بشكل غير معقول وكأنها سفينة ذاهبة الى حتفها، ركابها الشعب العراقي، بدت العملية السياسية كأنها عاصفة في وسط الصحراء تلف من أمامها وتصعد به الى عنان أسماء، وربما تضرب به نحو الأرض بقوة ؟

شاعت الصحف والفضائيات وأصبحت المقرات الحزبية موئلا لمئات الأحزاب الناشئة في العراق والتي تكونت في بلدان الجوار، ومثلما كان العراق ساحة مفتوحة يلعب بها من يشاء، كانت أيضاً مفتوحة لكل البضاعة الفاسدة أو من الدرجة السابعة، وقد غزت أسواقنا وكانت ضربة قاصمة أجهضت على الاقتصاد فتوقفت المعامل والمصانع الحكومية والأهلية، وحتى الحرف اليدوية، ومنها معمل أبو نورس وحامد، فالحقائب الصينية تكدست في كل محل وبربع القيمة ؟

في هذه الأثناء طفت على سطح الواقع العراقي صفة الطائفية بعد أن كانت في قاع المجتمع، جعلها السياسيون تطغى على الواقع الجديد، ونزلت الى كل تفاصيل الحياة البسيطة وبدأ هجرت

المختلفين من مناطقهم الى الداخل والخارج، وكان حامد من المهجرين الى كربلاء، بعد أن سكن في ألسيديه لأكثر من عشر سنوات ومن قبله زوجته وأهلها الذين سكنوا المنطقة منذ عقود مضت ؟

اتصلت به صاحبة الشركة تعلمه أنها قد حصلت له على فيزة (الشنكل)، عن طريق وفد يزور ايطاليا، والباقي عليه يتكفل بنفسه، هرع حامد إليها لا يصدق نفسه أن صاحبة الشركة قد صدقت وأن الحظ يمكن أن يبتسم له من جديد، بعد انهيار المعمل وتوقف عمل المحل وتهجيره من بغداد ؟

في هذه الأثناء رأيت بعض الغرباء ينزلون عنوان المحل الذي كان يشتغل فيه ياسين ويجمعون أشياءه، ويضعونها في سيارة حمل، وبعد أن أفرغوه من محتوياته، ظهر مصعب من داخله يضرب يده بالأخرى، لا أعرف من الأوساخ التي علقت بها أم حسرة على الذي جرى ؟

سلمت عليه وكان رده والألم بادي على وجهه، جلسنا في بداية المحل بين أنقاض وأوساخ المحل المتناثرة هنا وهناك، سألته عما به فأجاب وهو يحولق ثم قال :

- يا أخي هذا ياسين راح يجنني، يتكلم مثل الكبار ويتصرف مثل الأطفال ؟

- ما الذي جرى ؟

- لقد غرق وأغرق ياسر معه، وحاول الانتحار لولا لطف الله، وزوجته التي أنقذته في آخر لحظة ؟
- مصعب ما بك لا تتكلم إلا بالألغاز، وأفحص حتى نفهم ما تقول ؟
- يا أخي ياسين إنسان فاشل، ولكنه يرفض الاقتناع بذلك، فبعد أن ذهب بجهدنا على مدار السنوات العشرة الماضية، وهرب الى سوريا وعاد من جديد، كانت حلقة النجاة الأخيرة له ولياسر، هو بيع المحل، وجمع حصص الجميع، وبدأ يعمل من جديد، ولكن (سرعان ما تعود حليمة لعادتها القديمة) فقد أتفق مع مدير عام أحدى المؤسسات الحكومية على توريد أخشاب لهم بقيمة (١٥٠) مليون دينار، وبعد سفر وخسائر كبيرة، لأكثر من خمسين يوما، أستطاع أن يتفق مع أحد التجار من النجف على توريد الصفقة لتلك المؤسسة، وبعد أن أوصلها لهم، فما كان من المدير العام إلا أن يرفضها وحجته في ذلك أنه تم إعلان ذلك على شكل مناقصة، وفاز بها أحد التجار ؟

فوقع ياسين على الأرض بعد نوبة سكر قاتلة، وعندما نقل الى البيت، وأثناء رجوع ياسر الى المؤسسة الحكومية لنقل الأخشاب، الى التاجر الذي أخذ منه الخشب، كان قد نهب نصفه بعض اللصوص من سكنة المنطقة، أما التاجر فقال لهم: أنه يشتريه بنصف القيمة، وهكذا ضاعت حصص الجميع من ورث بيع محل

الأب وعاد الجميع الى المربع الأول، بل الى تحت الصفر، فقد تناهى الى سمعي أن بعض الدائنين أثناء عمل ياسين في بيع ألواح البلاستيك والسقوف الثانوية والكارثة الحقيقية، أن ياسر أخبرني، أنهم سحبوا بعض القروض من البنوك بكفالة صديق لهم يمتلك تسهيلات ؟

- ماذا تعني بقولك هذا ؟
- أعني أنه لا سبيل إلا بيع البيت، من أجل تسديد الديون الأخيرة، التي خلفها الأستاذ ياسين؟
- أعانكم الله على هذه المصائب ؟
- بل أجارنا الله من ياسين وأفكاره ؟
- الله كريم ... الأيام حبلى بالقادم ؟

قبل أن أودع مصعب، والحزن يملأ قلبه، على ما آل إليه أخواه ياسين وياسر، أخبرني بأنهما قد اعتكفا في دار أبيهم الكبيرة الذي استأجروه للعائلة ولهم ؟ وأخذ هو بإعالة الجميع، فبعد أن سدد قروض المصارف، وأعطى بعض الدائنين ما بين نصف دينهم وكله، ترك بعض ما تبقى من المال حصة أخوته من البيت (الورث) وأودعها عند بعض الشخوص ممن يعملون بالآجل (الربح الثابت) وأصبح يقبض عند كل رأس شهر أرباح ذلك المبلغ ويعطيه لهم ؟

أما حامد فقد أتصل بي من سوريا يحتاج بعض المال، حتى يتم هجرته الى إيطاليا، ومنها الى ألمانيا، حيث أتفق مع عديله (زوج أخت زوجته) على اللقاء في منطقة معلومة على الحدود، ومنها الى السويد، بعد أن أودع زوجته في شقة داخل أحد الأحياء ذات الصبغة الواحدة على أمل حصوله على جنسية ومن ثم طلب لم الشمل ؟

انتهت



مدن الهلاك والشاهدان

مواليد كربلاء / 1968

كلية الفنون الجميلة – جامعة بغداد /1992- 1993

ماجستير فنون جميلة – 2008- 2009

عضو نقابة الفنانين العراقيين

عضو نقابة الصحفيين العراقيين

عضو الإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

Alaa.mashthob@gmail.com

صدر له

- (المواطن بين الوطن والوطنية) مطبعة الزوراء – كربلاء/ 2008
- مجموعة قصصية بعنوان (ربما أعود أليك) دار الينابيع – سوريا / 2010.
- الحنين الى الغربة دار الحكمة – كربلاء / 2011
- مجموعة قصصية (زقاق الأرامل) دار تموز – سوريا / 2012
- بحوث ودراسات في السينما والتلفزيون / دار آراس أربيل – العراق/ 2012

الأفلام

- أخرج فلم تسجيلي بعنوان (أبواب وشبابيك)
- أخرج فلم روائي بعنوان (الفرن)
- أخرج فلم روائي بعنوان (تداعيات)



دار الأيام للنشر والتوزيع
عمـــان-ش الملك حسين - وسط البلد أول طلعـــة
جبل الحسين بجانب سرفيس جبل الحسين خط 9
ص.ب 925636 العبدلي 11190 الاردن
هاتف : 4633362 6 00962 تلفاكس:4633352 6 00962
جـوال:707630 795 00962 -509925 797 00962
E-mail:salah_tallawi@yahoo.com

